<u>أضواء على حياة</u>

الحسن بن محمد الوزان
وإنتاجه الفكري والمؤثرات التي تأثر بها

د. شوقي عطا الله الجمل

من المفارقات الغريبة ان رحلة الحسن بن محمد الوزان ، وانتاجه وشخصيته لقيت من العناية والاهتمام فى العالم الغربي أو العالم الاوربي على وجه العموم أضعاف أضعاف ما وجدته فى عالمنا العربي والاسلامي الذي ينتمي اليه الرحالة ، فباستثناء محاولات فردية سريعة لتسليط الاضواء عليه — لم ينشر بالعربية بحث كامل شامل عنه ، بل يكفي ان كتابه « وصف افريقيا » — وهو بلا شك ليس الانتاج الفكري الوحيد له — ترجم الى معظم لغات العالم وطبع عدة طبعات ، ولم يقدر له الى الآن أن يطبع وينشر بالعربية ، واعتقد أنني لا ابتعد عن الصواب كثيرا اذا قلت ان الكثيرين من المثقفين قد يعرفون الرحالة باسمه الاجنبي الذي اطلق

عليه في ظرف معين من حياته (ليون الافريقي) بينما يجهلون اسمه العربي الذي يرجع به الى أصله الحقيقي .

وتبدو غرابة هذا الوضع ، وحجم الفراغ الذي تشكو منه مكتباتنا العربية – لعدم وجود ترجمة عربية لكتاب « وصف افريقيا » بين كتب التراث المنشورة ، حين نلقي بعض الاضواء على هذا الكتاب فندرك قيمته الحقيقية ووضع مؤلفه واهميته .

ان الوزان يقف في الصف – ودون مبالغة – مع البكري العالم الجغرافي (1094 م) والادريسي (1100 – 1165) ، ومع الرحالة المغربي ابن بطوطة (1304 – 1377) وغيرهم ممن عرف لهم العالم مكانتهم ، بل ان مؤلفه يتميز بأهمية خاصة ترتبط بالظروف المحيطة بالعالم العربي ، والاوربي التي عاش فيها ، والميدان الذي تناولته جولاته.

فالعصر الذي عاش فيه الرحالة – كما سنبين بايضاح اكثر فيما بعد – يمثل مرحلة حاسمة فيما يتعلق بتاريخ العرب خاصة في شمال افريقيا ، وعلاقاتهم بأوربا ، التي كانت هي الاخرى على أعتاب مرحلة النهضة الاوربية التي عاصر (ليون) – كما أصبح يسمى في روما – اشعاعاتها القوية ، وقد عاش هو في بلاط اسرة مدتشي (Medicci) التي يذكر لها مساهمتها بنصيب في اذكاء شعلة هذه النهضة .

ان بعض المؤرخين والكتاب يعتبرون رحالتنا هذا آخر حلقة في سلسلة العلماء العرب الذين نبتوا في ظل الحضارة الاسلامية المزدهرة في الاندلس ، ومهما يكن مدى صحة هذا الراي – فان رحلات الوزان ومؤلفه عنها تثير الانتباه الى عدة ظواهر في العالم الاسلامي لها أهميتها البالغة ، فهي تدل على الروابط الثقافية التي كانت بين أجزاء العالم الاسلامي مغربه ومشرقه ، فرغم انقسام العالم الاسلامي الى عدد من الوحدات السياسية – فقد كان باستطاعة الرحالة والعلماء بالذات أن ينتقلوا دون اي جهد من بلد الى آخر ، وان يقيموا أمدا طويلا أو قصيرا في مختلف الاماكن دون الاحساس بفروق كبيرة ، وكانوا يقابلون عادة في

اي بلد من بلاد الوطن العربي بالترحاب وتعرف لهم مكانتهم ويستفاد من علمهم وخبرتهم (1) .

وكان الاندلس ــ وحتى نهاية دولة غرناطة (1492 م) ، وحتى بعد ذلك بفترة غير قصيرة ــ مرتبطا بالمغرب والمشرق العربي ينتقل رواد العلم والرحالة منه الى هذه الاقطار العربية فى المغرب والمشرق دون عناء .

والظاهرة الهامة الاخرى التي تبرز لاول وهلة من تتبع رحلة الوزان وغيره من رحالة الاندلس والمغرب والتي يمكن وضعها فى صيغة استفهامية هي :

ما العوامل والمؤثرات التي جعلت المغاربة بالذات يبرزون فى مجال الرحلات العلمية ، تلك الرحلات التي تميزت بدقة الملاحظة والتحليل ؟

فرحلة الوزان ليست فريدة فى بابها لكنها فى الحقيقة حلقة بارزة فى سلسلة الرحلات العلمية التي قدمت للفكر الانساني ولعلوم الجغرافيا والتاريخ والاجتماع وغيرها من العلوم ــ ثروة لا تقدر ، وقد ذكر مؤرخ الاندلس الذي عاش فى القرن السابع عشر وهو المقري ــ اسماء مائتين وثمانين شخصا من الاندلسيين قاموا برحلات للشرق للرحلة والعلم وليس للتجارة ــ واعترف انه لم يستوعب كل الاسماء .

نبذة عن حياة الحسن بن الوزان :

من هو الحسن بن محمد الوزان الزياتي ؟

بالرغم من المحاولات المتعددة للكشف عن الوزان فلا تزال نواح عدة من حياته وشخصيته لم تكتشف بعد ، أو على الاقل لا نستطيع الجزم بحقيقة الامر فيها ، اذ أن أحدا من المعاصرين له لم يتحدث عنه ــ ومع ذلك فيمكن من ثنايا كتابه المنشور أن نستشف بعض جوانب شخصيته ومكوناتها .

وكل ما نعرفه عن (العائلة الوزانية) التي ينتسب اليها ـ هو انهـا عائلة عربية كانت بالاندلس فى فترة حاسمة من تاريخ العرب فى هـذه البلاد وكفاحهم ضد القوى المسيحية التي أخذت تكيل لهم الضربات حتى انتهى الامر بالقضاء على نفوذ العرب فى اسبانيا ، وهجرة البقية من المسلمين من هذه البلاد تبحث لها عن مأوى فى البلاد الاسلامية الاخرى القريبة . وكانت أسرة الوزان من هذه الاسر التي هاجرت من (غرناطة) الى شمال افريقيا ، واستقرت أخيرا فى فاس (2) .

ورغم اننا نجهل مركز أسرته ـ لكن هناك اشارات فى كتابه تدل على أنها كانت أسرة مرموقة سواء فى (غرناطة) أم بعد هجرتها الى المغرب ، فهو يشير الى أن اباه كان يقضي فصل الصيف عادة (بقصر عباد) قرب فاس لهوائه العليل وطقسه الجميل ، كما يشير الى انه (اي اباه) كان يسافر الى بعض الجهات بالريف فيما يتعلق بعمله ـ أما عمه فقد كان شخصية ذات بال ،فقد ذكر انه كان يسافر كسفير عن حاكم فاس فى السفارات الهامة ، وقد صحبه هو الى (تمبكتو) (3) .

وقد تعددت الاسماء والصفات التي اطلقت عليه ، فقد عرف فى المراجع الاجنبية باسم (Leo Africanus) اي يوحنا (الاسد) الافريقي ، كما عرف باسم (Giovanni Lone) ، واحيانا سمي (ليون الايبيري) أو (الغرناطي) أو (الفاسي) .

وكل من هذه الصفات يتصل بناحية خاصة من نواحي حياته . فصفة الافريقي لعلها ترجع الى أن كتابه الهام الذي نشر ، وكان سبب شهرته يتعلق بتاريخ افريقيا ووصفها والاشياء الهامة المتصلة بها (4) .

أما اسم (ليون أو ليو) أو (جيوفاني) فهو يرتبط باسم البابا ليو العاشر (Leo X) الذي جلس على كرسي البابوية (1513 ـ 1521) وهو من أسرة مدتشي (Medicci) (5) وكان اسمه قبل أن يصل الى كرسي البابوية (Geovanni de Med:cci)

وقد أدرك هذا البابا منزلة الحسن بن محمد الوزان حين قدمه له القرصان بعد أسره ــ فقربه اليه ، وعمده ثم أطلق عليه اسمه ، وكان هذا البابـــا مهتما بشؤون الشرق والبلاد الاسلامية ، ويذكر التاريخ انه حيـــن زاد خطر الاتراك العثمانيين جرت مباحثات بين (ليو العاشر) وبين (فرنسوا الاول) ملك فرنسا فى عام (1515) ــ بهدف بحث امكان ارسال حملة صليبية ضد الاتراك العثمانيين (6) .

اما لفظ (الايبيري) أو (الغرناطي) فيرجع لارتباطه بغرناطة فى شبه جزيرة ايبيريا ، أما (الفاسي) فنسبة الى مدينة (فاس) التـــي ارتبطت بفترة هامة من حياته وتكوينه الفكري .

وقد اثيرت شكوك حول مسقط راسه ، فيتساءل (بورى (Pory هل ولد (الحسن بن محمد) فى (غرناطة) ، ام فى بلد افريقي آخـــر ؟ ويبني شكوكه هذه على تعبير جاء فى كتاب (وصف افريقيـــا) فقـــد ذكر فيه « ان افريقيا ــ القارة التي ادين لها بمولدي ــ بالاضافـــة الى الفضل الاكبر فيما اكتسبته من ثقافة (7) » .

والحقيقة ان الترجمة الانجليزية هي المسؤولة عن هذا (اللبس) فالنص اللاتيني لا يحمل هذا المعنى ، لكنه يعني « ان افريقيا القارة التي احتضنته فى صغره ، والتي قضى فيها زهرة حياته » ؛

وقد وقع فى هذا الخطأ كتاب آخـــرون ، فالكاتـــب (Rae) فى حديثه عن بلاد المغرب يشير الى (ليو) على انه ولد فى المغرب ، لكنه بعد ذلك شب فى غرناطة كشخص مسيحي ، دون أن يفسر لنا ظروف انتقاله هذا الى غرناطة والى المسيحية (8) .

لكن فى الحقيقة ان (ليو) نفسه يحسم هذا الامر ، فهو يذكر لنا انه التقى بأحد الغرناطيين من أبناء بلده الاصلي (9) .

وهناك اختلاف ايضا فى تحديد تاريخ ميلاده ، فقد ذهب كثيرون من الكتاب الى أنه ولد فى عام (1491 م) ، ولعل تحديد هذا التاريخ

ارتبط بسقوط غرناطة التي استسلمت فى (2 يناير 1492 م) ، ولما كان رحيله الى افريقيا قد تم فعلا وهو طفل استنتج هؤلاء انه ولد فى العام السابق لسقوط غرناطة أي فى عام (1491) ــ لكن هذا الزعم لا يستند فى الحقيقة على أسس قوية ، فلا يوجد ما يدل على ان اسرته هاجرت الى المغرب بعد سقوط (غرناطة) مباشره ، اذ أنه من المعروف أن عددا غير قليل من المسلمين بقي فيها مدة بعد سقوطها .

على ان تاريخ ميلاده يمكن استنتاجه من اشارته فى كتابه لبعض الاحداث التاريخية ــ فعند كلامه عن سقوط (آسفي) فى يد البرتغال يشير الى أن عمره كان فى ذلك الوقت عشر سنوات (10) .

ولما كان استيلاء البرتغاليين على آسفي قد تم فى عام (913 هـ ــ 1508 م) فهذا يعني ان مولده كان فى عام (904 هـ ــ 1498 م) ، وبالتالي تكون أسرته قد بقيت فى غرناطة مدة ست سنوات تقريبا بعد أن سلمت آخر معاقل الاسلام فى اسبانيا لجيش (ايزابيلا) و (فرديناند).

وهذه الحقيقة تفتح الباب لتساؤلات عدة عن وضع المسلمين الذين بقوا فى اسبانيا بعد تصفية النفوذ الاسلامي فى هذه البلاد التي خضعت لسلطان المسلمين ما يقرب من ثمانية قرون .

والمعروف ان كثيرا من المسلمين هاجروا من الاندلس قبيل سقوط غرناطة ، واثر سقوط هذه المملكة وقد لجأ عدد منهم الى المغرب واستقر بعضهم فى (تطوان) بينما استقر البعض الآخر فى (الرباط) و (سلا ،) ولعب هؤلاء المهاجرون دورا هاما في تاريخ هذه البلاد ، فكانت منهم أسر حاكمة ، كما حملوا لواء الجهاد والكفاح ضد البرتغاليين والاسبان فى البحر المتوسط وفى ثغور شمال افريقيا التي تعرضت لاطماعهم (اطماع البرتغاليين والاسبان) ، ووصل الامر الى أن أصبح لهم اسطول قوي يعمل فى البحر المتوسط والمحيط الاطلسي ضد سفن البرتغال والاسبان بالذات ، وقد شعرت الدول الاوربية جميعها بوطأة هذا الاسطول حتى أن بعض الكتاب الاوربيين أطلقوا على البحارة

العاملين فى هذا الاسطول اسم قراصنة سلا (Les corsaires de Salé) وهذا التعبير فيه تجنى على الدافع الحقيقي وراء هذا العمل (11) .

اما الذين بقوا من المسلمين فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة ــ ومنهم اسرة الوزان ــ فقد عوملوا فى البدء معاملة مقبولة وسمح لهم بالابقاء على ممتلكاتهم ، لكن لم يلبث الاسبان أن ضيقوا عليهم الخنـــاق ، واضطــر كثيرون لاعتناق المسيحية وساموا الباقين سواء العذاب ، وأجبروهم على العمل كالعبيد فى السفن الشراعية ، او فى مناجم (بيرو) ، كما الزموهم ان يجتمعوا فى احياء خاصة بهم وحرموا عليهم شراء الاراضي أو حمـل السلاح ، وظل الامر كذلك حتى وصلت موجة الاضطهاد الى ذروتهـا فى عهد فيليب الثالث (Philippe III) الذي وصل للعرش فى عـــام 1598 ، وبتحريض الراهب المتعصـــب زيمينـــس (ximenes) أصدر فى (1609) قرارا بترحيل جميع المتبقيين من عرب الاندلس الى المغرب ، وقد قتل كثيرون منهم قبل وصولهم الى الساجل ، ومن وصل منهم الى الساحل وصل فى حالة يرثى لها (12) .

على كل فمن المرجح أن أسرة الوزان ــ كما ذكرنـــا ــ بقيـــت فى اسبانيا بعد سقوط غرناطة فى يد الاسبان مدة اربع او خمس سنوات ، ثم هاجرت الى المغرب حوالي عام 1497 واستقرت فى فاس ، ولم يكن اضطهاد الاسبان للعرب فى الاندلس قد وصل الى درجة العنف التـــي تطورت اليها الامور فيما بعد . (13)

وصل الرحالة الى (فاس) مع أسرته ــ ومنها كانت نقطة انطلاقة لرحلاته المتعددة .

وفى فاس تلقى الوزان علومه الاولى فى مدارسها ، وتعلـــم فى (جامع القرويين) الذي كان يعتبر كعبة الراغبين فى التزود بالعلـــوم الدينيـــة والنظريـــة (14) .

وقد كانت (فاس) فى ذلك الوقت من اهم مراكز العلم والمعرفـة

فى العالم العربي ، يأتي اليها طلاب العلم من مختلف بقاع العالم الاسلامي ، وكانت لها مكانة لا تقل عن مكانة (القاهرة) و (قرطبة) و (غرناطة) ، ولعل الظروف السياسية التي احاطت بالعالم الاسلامي والتي تمثلت فى انتهاء نفوذ العرب السياسي فى اسبانيا ـ رغم قسوتها ـ ساهمت فى ازدهار منار العلم فى فاس اذ أصبحت بلاد المغرب بالذات المأوى الذي احتضن الكثيرين من المثقفين والعلماء المهاجرين من اسبانيا . ودراسة الاوضاع العلمية والفكرية فى المغرب خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر تعطي لنا فكرة عن الجو العلمي الذي نشأ فيه الوزان والذي اسهم فى تكوينه .

ولعل اروع وصف لما وصل اليه صاحبنا من العلم والمعرفة هو ما عبر عنه (Pory) مترجم كتابه للانجليزية اذ قال : « كما ان موسى وصف بأنه تثقف بكل حكمة المصريين ـ كذلك فان ليو يمكن أن يوصف بأنه تثقف بكل ثقافة المغرب والمغاربة فى عهده (15) » .

ويشير الوزان فى كتابه الى بعض رفاقه فى التعليم (16) لكنه لم يشر الى اساتذته ، وان كان قد اشار الى عشرات من المفكرين والفلاسفة المسلمين الذين قرأ لهم وتأثر بكتاباتهم مثل (ابن رشد ، الفارابي ، ابن سينا ، ابن خلدون ، عبد الله البيطار ، البكري ، الادريسي ، المسعودي) والعديد غيرهم ، وهذا يدل على انه نال قسطا وافرا من فنون العلم المختلفة واطلع على أمهات الكتب المعروفة فى وقته فى ألوان المعرفة المتعددة .

أما عن أوجه نشاطه الاخرى فى المغرب فيذكر انه اشترك مع والده فى اعداد قوافل الحج المتوجهة الى الحجاز ، كما يشير الى زياراته لبعض المزارات التي كانت لها قدسية فى ذلك الوقت .

وقد شغل الحسن بن محمد الوزان فى بداية حياته العلمية ، بعض الوظائف ، فعمل لمدة عامين ككاتب عدل فى المستشفى الكبير بفاس (17).

رحـــلاتــــــه وأسفـــــاره :

تعددت أسفاره وتنوعت ، فلم يعد يستقر فى بلد معين لمدة طويلة، ويبدو أن السفر والترحال اصبح الشيء المحبب الى نفسه والذي يتلاءم مع ميوله واتجاهاته ، ولذلك نراه يتنقل فى البلاد ويعمـــل (كقاض) أو حكم فى الخلافات بين الناس مقابل أشياء عينية لان النقود لم تكن متداولة بكثرة ، وهو فى ذلك يستند لالمامه ببعض المبادىء القانونية ، كما أنه فى بعض أسفاره مع التجار كان يعمل كاتبا بدون حساباتهم كما يفصـــل فى مشاكلهم المادية والقانونية ، ويشير الى بعض المتاعب التي كـــان يواجهها التجار فى الطريق ، أو فى المدن الساحلية من القرصان الذين كانوا لا يجردونهم فقط من بضائعهم — لكن ايضا يسلبونهم حريتهـــم اذا وقعوا فى أيديهم ، ولذا فان التاجر لم يكن تاجرا فحسب بل كان يلزم أن يكون ايضا رجل حرب مستعدا للدفاع عن نفسه وماله ضد اي هجـــوم مفاجـــيء .

ولم تقتصر تحركاته على هذا المجال ، فقد كلف من قبل (سلطان فاس) ، وكذا من (الشريف محمد) بالقيام بسفارات هامة (18) .

واشترك الوزان — بالاضافة الى ذلك — فى المعارك التي وجهت ضد البرتغال فى (أصيلا) و (المعمورة) وغيرهما من الموانيء المغربية التي كان البرتغاليون قد وضعوا أيديهم عليها . وهو يعطينا فى هـــذا المجال صورة رائعة للمقاومة الوطنية للمغاربة ضد المستعمرين حتـــى أصبحت حياتهم بالثغور المغربية لا تطاق (19) . اذ لم يكتف البرتغـــال بطرد العرب من شبه جزيرة ايبريا بل تعقبوهم فى القارة الافريقية حيث شنوا على المسلمين حربا يمكن أن نعتبرها امتدادا للحروب الصليبية ، فقد كان الهدف الديني فى مقدمة الدوافع لها ، وشارك فيها اكثر من بلد أوربي ، كما لعبت البابوية دورا هاما فيها . وقد صرح المؤرخون البرتغال انفسهم بذلك . فذكر المؤرخ البرتغالـــي (فاسكو دى كرافالو) : « ان الروح الصليبية التي ضعفت فى كل أوربا اخذت تنتعش فى البرتغال (20)» .

هذا وفى بعض رحلاته كان الوزان يسافر بتكليف من سلطان فاس كملحق مع بعض الموظفين الحكوميين لتحصيل الاموال المطلوبة من القبائل ، ويشير اثناء حديثه عن ذلك لاشياء طريفة ، فيذكر أن الناس رغم قدرتهم على الدفع فان هناك صعوبة فى اخذ النقود منهم ، ويذكر ان بعض القبائل بالذات عرف عنها البطء فى دفع ما عليها من مال (21) .

ومن جولات رحالتنا الوزان فى المغرب ، الجولة التي قام بها فى عام (915 هـ — 1509 م) لدراسة الشواهد التي على قبور بعض الشخصيات البارزة فى (شالة) (22) ويبدو — كما يذكر — أنه اتخذ منها مادة لكتاب وضعه عن هذه الشخصيات فيما بعد — والحقيقة أن هذه الدراسة ولو انها قد تبدو غريبة فى الاساس الذي بنيت عليه — وهي شواهد القبور — لكنها بلا شك دراسة طريفة وتعطي فكرة على أنه كاتب ومفكر مجدد ، ولا يقف عند حدود التقليد .

ومن الرحلات الهامة التي قام بها — الرحلة الطويلة الى (تمبكتو) . وقد بدأها — كما يستفاد من كتابه — فى عام (917 هـ — 1511 م) عن طريق (سجلماسة) حتى وصل (تمبكتو) التي وصفها وصفا شيقا ، وكانت فى ذلك الوقت فى قمة مجدها بعد غزوات (أسكيا) الذي يسميه (ملك تمبكتو) والذي يقول انه ألزم معظم الاقاليم المجاورة على دفع ضرائب له ، ويشير الى سفره (اي اسكيا) الى مكة للحج ، وزار الوزان مملكة (مالي) وكانت فى حالة من التدهور بسبب الحروب التي طحنتها . ومن (صنغاي) اتجه شرقا الى بلاد (الهوسا) ، ثم الى (بورنو) . — وهكذا زار فى رحلته هذه — التي وصفها فى الكتاب السابع من كتبه التسعة — عددا كبيرا من الممالك الاسلامية والزنجية بغرب افريقيا ، ويذكر انها كلها تقريبا تقع بالقرب من نهر النيجر وفروعه .

وقد وقع الوزان فى خطأ عجيب حين ذكر أن نهر النيجر ينبع من بحيرة تشاد ويسير نحو الغرب الى المحيط ، رغم انه أبحر فى مياهه لخمسمائة ميل او اكثر . على أن هذا الخطأ الذي لا مبرر له لا يقلل من

قيمة المعلومات المتعلقة بافريقيا الغربية التي أمدنا بها ، والحقيقة أن هذه المعلومات تعتبر مكملة للصور التي رسمها الادريسي لهذه الجهات ، فهي توضح التغييرات التي طرات منذ وصفها الادريسي . وهذا يوضح اهمية هذه الرحلة وما كتبه الوزان عن هذه المالك الاسلامية فى غـــرب افريقيـــا .

أما عن رحلاته الى المشرق واوربا ، فقد قام الحســـن بن محمد الوزان بثلاث رحلات الى مصر ، واعطى وصفا دقيقا للاوضاع بها فى ظل حكم المماليك ، لكنه يذكر انه زارها بعد فتح السلطان سليـــم لها ، وان وجوده هناك وافق خروج السلطان سليم من الاسكندرية ، فلعل فتـــرة زيارته لمصر كانت بين (1515 ، 1517) وانه زارها فى طريقـــه إلى القسطنطينية او طريق العودة منها ، كما زار الحرمين الشريفين وبعض جهات آسيا ، ويذكر لنا انه اذا أمد الله فى عمره سيقـــوم بوصف كـــل الاماكن الآسيوية التي زارها (شبه جزيرة العرب ، الجزء الآسيوي من مصر ، العراق ، فارس ، بلاد التتار ، آسيا الصغرى . .) لانـــه لا يود أن يتعرض لوصف هذه البلاد فى كتابه الذي خصصه لاسفاره فى افريقيا حتى لا يبعده ذلك عن الموضوع الرئيسي للكتاب (23) . ولا ندري هـــل حقق هذا الامل ؟ وهل له كتاب أو كتب فى هذا الشأن ما زالت بعيدة عن متناول أيدينا ، أم لا ؟

هكذا نرى أن الوزان قضى معظم وقته بعد أن شب عن الطـــوق متنقلا فى اعمال تتعلق بالتجارة أو الحرب او الدبلوماسية او كقاض او حكم فى المنازعات المدنية والمادية او ككاتب عدل أو فى رفقة والـــده او عمه ، ولذلك لم تكن لديه ــ كما يذكر ــ اوقات فراغ طويلة ،لكن فى أوقات الفراغ هذه كان يتغنى بالاشعار (24) .

هذا وفى اثناء عودته من القسطنطينية ، كان فى تونس ــ كما ذكر فى عام (926 هـ ــ 1519 م) ومنها ابحر قاصدا المغرب ، لكنه وقع فى أيدي قرصان صقلية الذين كانوا يجوبون فى البحر المتوسط قـــرب جزيرة جربة (25) ، ويبدو أن هؤلاء القرصان ادركوا انه شاب ليس كباقي

الاسرى الذين يقعون بين ايديهم فلم يبيعوه فى اسواق النخاسة بل حملوه الى (نابولي) ثم الى (روما) حيث قدموه هدية الى البابا ليو العاشــر ، وكان هذا البابا مــن أسرة أثرت من التجارة لكنها أيضا ــ كمــا ذكرنا ــ اشتهرت بتشجيعها للعلم والعلماء ــ فعرف له مكانته واضفى عليه رعايته واطلق سراحه كما أطلق عليه اسمه ، وأتاح له فرصة الاجتماع بالعلمــاء والادباء الذين كان (البابا) يحتضنهم .

وتثير المراجع التي تعرضت لهذه الفترة الحاسمة من حياة ليــو ــ جدلا حول اعتناقه المسيحية من عدمه ، وهل تم هذا مجاملة للبابا الذي احتضنه او للوسط المسيحي الذي وجد فيه ، ام عن اقتناع ويقين كما يدعــي (John Pory) الذي نقل مؤلفه الى الانجليزية عام 1600 (26).

وهذه النقطة ما كانت تستحق وقفة او تعليقا لولا أن بعض الكتاب الاجانب الذين تعرضوا لهذه الفترة بالذات اتخذوا منها تكأة فرددوا فكرة ان تحول المسلمين عن دينهم كان فى ذلك الوقت امرا شائعا . وممــا لا شك فيه ان المسلمين فى الاندلس تعرضوا فى هذه الفترة الى ضغوط عنيفة واضطر كثيرون منهم الى الهرب بدينهم الى المغرب وغيره من بلاد الساحل الافريقي المقابل لشبه جزيرة ايبريا ، وقد كان العامل الديني من ابرز العوامل فى الحرب بين ملوك اسبانيا والبرتغال من جهة وبين العرب من جهة اخرى ، وقد حاول هؤلاء الملوك تعقب العرب فى شمال افريقيا بل حاولوا تطويق القوى الاسلامية والقضاء على مصدر قوتها التي كانت في ذلك الوقت تتمثل فى تجارة الشرق ، فكانت المحاولات للسيطرة على شرايين الملاحة المؤدية الى مصادر هذه التجارة .

ويهمنا فى مجال بحثنا هذا موقف البابوية من هذه الحركة ومباركتها لها ، فهذا بلا شك يلقي الاضواء على موقف البابا (ليو العاشر) مــن الوزان ، والاهتمام بما يمكن أن تستفيده الدول المسيحية فى كفاحها ضد القوى الاسلامية من رحلاته والمعلومات التي كشف عنها . فليس الهدف العلمي فحسب كما تصور الكتابات الاجنبية هو العامل الوحيد الــذي يفسر موقف البابا (ليو العاشر) من رحالتنا ، خاصة انه كانت لهــذا

البابا بالذات مواقف اخرى معروفة فى التاريخ الاوربي حين اصطدم الدين بالتيارات الفكرية العصرية التي هي فى الحقيقة من نتاج عصر النهضة الاوربية ، وقد اشرت قبل الى أن البابا (ليو العاشر) لعب دورا هاما فى اثناء حركة مارتن لوثر (27) .

على كل فيما يتعلق بالوزان فلا يمكن ان نجزم ـ دون دليل قاطع ـ بأن شخصا مثله عاش وشب فى بيئة اسلامية دينية فى (فاس) وتعلم فى اكبر معاهدها الدينية ، من السهل ان يتحول عن دينه خاصة أنه لم يشر هو لشيء من هذا ، وكل ما فى الامر ان الذين تعرضوا للدراسة حياته ولمسوا ما قام بينه وبين البابا (ليو العاشر) من تقارب ومودة لم يتصوروا حدوث مثل هذا التعاطف بين البابا وشخص غير مسيحي ، وفسروا العمل الذي قام به البابا من اطلاق اسمه على الرحالة وغير ذلك بانه دليل اعتناقه المسيحية برغبته ورضاه .

عاش الرحالة فى روما حوالي ثماني سنوات زار خلالها عدة مدن ، وقام بتدريس اللغة العربية بكلية مدينة بولونيا (Bologna) وقد ربطته في روما صداقة بالقس (Viterbo) الذي اصبح فيما بعد كاردينالا باسم (Cardinal Egidi antonini) وقد علمه (ليو) العربية . لكن بعد وفاة البابا ليو العاشر فى عام (927 هـ — 1521 م) يبدو انه لم يلق نفس المعاملة التي كان يعامل بها فعاد بعد فترة الى شمال افريقيا حيث لجأ لتونس فقضى بقية حياته حيث مات فى (1552) .

ويستنتج من كتابه (وصف افريقيا) انه ختمه فى روما فى (10 مارس 1526) ، فمغادرته روما اذا كانت بعد هذا التاريخ (28) .

الاوضاع فى البيئة التي عاش فيها الوزان (قبل اسره وبعده) :

قبل ان نتعرض لكتاب وصف افريقيا الذي كان سبب شهرة الوزان لعله من الاوفق ان نقف وقفة نلقي فيها نظرة على المناخ الذي عاش فيه

سواء قبل اسره او بعد اسره وانتقاله لاوربا ، ففي هذا المناخ تكونت مفاهيمه وآراؤه واتجاهاته بالاضافة الى تكوينه العلمي والثقافي .

لقد عاصر الرحالة فترة تعتبر ـ من الناحية السياسية ـ من فترات التاريخ الحاسمة سواء في المغرب او في أوربا . فقد كان المغرب يشهد غروب شمس دولة بني مرين ـ ملوك فاس ، وزيادة نفوذ بني وطاس واستبدادهم بالامر ، لكن لم تستقر الامور لهم بمفردهم طويلا فقد اشتد ساعد امراء مراكش (السعديين) ووقعت بينهم وبين الوطاسيين حروب انتهت بان دخل السعديون فاس سنة (956 هـ) ونجحوا بعد ذلك في القبض على (أبي حسون) آخر الامراء الوطاسيين ، وبذا انقرضت أسرة بني وطاس وذهب ملكهم .

وادى هذا الاضطراب السياسي الى ضعف السلطات الحاكمة في وقت كان فيه المسلمون في الاندلس يتلقون ضربات متتالية من القوى المسيحية التي كانت قد اخذت تفرض نفوذها على البلاد وتقضي على نفوذ المسلمين بها .

هذا بينما كان المشرق الاسلامي يشهد ظهور دولة فتية هي (الدولة العثمانية) التي استطاعت فتح القسطنطينية في عام (1453 م) ، كما استطاع السلطان سليم الاول بعد ذلك في عامي (1516 ـ 1517 م) ان يقضي على نفوذ المماليك في الشام ومصر ، وغرب شبه جزيرة العرب، كما استولى على رودس وبسط سيادته على بلاد الجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ، وقد ذكر الوزان ـ كما أشرنا من قبل ـ انه زار القسطنطينية ومصر بعد غزو سليم لها مباشرة .

هذا من الناحية السياسية . لكن رغم ظروف الاضطراب السياسي التي كانت تسود بلاد المغرب العربي في الوقت الذي عاش فيه الوزان فقد كانت هذه البلاد تنعم بنهضة علمية وفكرية تمتد جذورها الى عصر المرينيين والى ما قبل ذلك . فاصبحت (فاس) مركزا للعلم والمعرفة في العالم العربي يأتي اليها طلاب العلم من كل بقاع العالم الاسلامي

والاوربي ، وكانت شهرتها في هذا المجال تضارع شهرة (قرطبة) و (غرناطة) في أوج مجدهما . ولم يقتصر الازدهار العلمي على العناية باللغة العربية وآدابها وعلوم الدين فحسب (29) ، بل ان كثيرا من كتب الاغريق والرومان وغيرهم كانت تترجم الى العربية ، وتعيد مجالس الحكام في فاس وتشجيعهم للعلم والعلماء الى الذاكرة مجالس العلم والعلماء في بغداد أيام الرشيد وغيره من خلفاء الدولة العباسية .

ونشير في هذا المجال الى البحث القيم الذي نشره عن هذا الموضوع الاستاذ الكبير محمد المنوني (30)

وقد حاول الكاتب أن يحدد للتيارات الفكرية في هذا العصر مسارات واضحة أهمها :

1 ــ أفكار جديدة في الاجتماع والتعليم

وتبرز هذه في مجال مؤلفات : ابن خلدون ، كذلك ابن السكاك (31) والمقري (32) ، الذي يبدي رأيا طريفا في التعليم بقوله : « انما أفسد العلم كثرة التواليف ، وانما اذهبه بنيان المدارس » ويفسر ذلك بأن الناس استباحوا النقل من المختصرات الغريبة عن اربابها ، كما أن ما يرتب للطلبة من (جرايات) في المدارس قد جذبهم أكثر من السعي للعلم طلبا للعلم في ذاته (33) .

ويبدو أن السلطان (أبا عنان المريني) قد بنى (مدرسة المتوكلية) بفاس بهدف تلافي أمثال هذه العيوب .

2 ــ موضوعات دينية : وقد اتجهت هذه الموضوعات الى عدة اهداف منها :
أ) الرد على اليهودية والمسيحية ــ وتتمثل في عدة رسائل وأبحاث منها « رسالة السائل والمجيب » ــ وهي عبارة عن حوار ديني طريف اشترك فيه عدد من رجال الدين المسيحيين واليهود ، ويذكر صاحب الرسالة انه وضعها للرد على هؤلاء المجادلين بتكليف

من وزير السلطان عبد الحق المريني (34) .

ب) مباحث تتعلق بالفقـــه المالكـــي .

جـ) رسائل وابحاث فى مقاومة البدع .

د) أبحاث جماعات معينة كالسنة والصوفية (35) .

3 ــ رسائل مكتوبة من بعض العلماء للحكام فيها نقد وتوجيه (بقصـــد الاصلاح) وقد اختلفت لهجتها بين الشدة واللين . ومن أمثلة ذلك رسالة الامام (ابن عباد) الى السلطان المريني عبد العزيز (36) .

4 ــ « كتابات جماعات الدفاع عن الاندلس » فقد ظهرت جماعات من العلماء نذرت نفسها لحث الحكام والافراد للسفر للاندلس ، وتدعيم النفوذ العربي فيه ، وذلك نتيجة لما لمسه هؤلاء من المخاطر التي يتعرض لها النفوذ العربي فى هذه البلاد .

وهناك ميدان آخر هام بالنسبة لمجال بحثنا حظي بنشاط المغاربة وقد أشرت اليه فى بداية الحديث ، وهو مجال (الرحلات العلمية) وما يتبعها من كشف مناطق وتوجيه الانظار لحقائق علمية واجتماعية غيـــر معروفة . والحقيقة ان كتاب الوزان عن (وصف افريقيا) والذي يتضمن مشاهداته فى هذه القارة التي كانت حتى ذلك الوقت يطلـــق عليهـــا الاوربيون اسم القارة المظلمة (أي التي لا يعرف العالم الاوربي شيئـــا عما فى داخلها) ــ يمثل حلقة فى سلسلة الجهود التي قام بها عدد من المغاربة فى هذا المجال ــ وقد أشار ليو نفسه فى كتابه الى بعض هؤلاء من امثال : البكري (37) ، والادريسي (38) ، وابن جبيـــر (39) ، وابن سعيد الغرناطي (40) ، وابن بطوطة (41) ، وابن خلدون (42) .

وكتابات هؤلاء الرحالة ما هي الا نماذج للرحلات التي قام بها عدد كبير من المغاربة ، وانتظمت هذه الرحلات مناطق عديـــدة فى المغرب والمشرق بل وقلب القارة الافريقية . والحقيقة أن هذه الظاهرة التـــي برزت فى ذلك الوقت فى كتب (المسالك والممالك) ، وكتب الرحلات ،

والزيارات (أي الرحلة لفرض الحج) ـ تلـــك الكتـــب التي لم تكتـــف بالطريقة الوصفية للطرق والمراحل ، لكن خرجت لنطـــاق الدراســـات الاجتماعية والتحليلية لعادات الناس وطـــرق معيشتهم وتصرفهـــم فى حياتهم ـ تحتاج لبحث أعمق ودراسة اشمل (43) .

هذه صورة لبعض مظاهر الحضارة التي كانت مزدهرة فى الاندلس والمغرب فى هذه الفترة التي عاش فيها الوزان ـ وهي بيئته الاصليـــة والاولـــــى .

أما فيما يتعلق بأوربا ففي ذلك الوقت كانت قد اخذت تتخلص من التخلف الحضاري الذي خيم عليها فى العصور الوسطى ، واسهمـــت الحضارة العربية الاسلامية الزاهرة فى قيام هذه النهضة الاوربيـــة . وكانت الاندلس بما ازدهرت فيها من حضارة عربية عملاقة من أهم مصادر الاشعاع الحضاري القوية على أوربا .

وتميزت شبه جزيرة ايطاليا التي احتضنت رحالتنا بعد أسره ، بالسبق فى الاخذ بأهداب النهضة الحديثة التي ساهمت فيها أسر حاكمة شجعت الآداب والفنون مثل أسرة مدتشي التي ينتمي اليها البابا ليـــو العـــاشـــر .

هذا ونشير الى أن هذه الفترة فى أوربا كانت ايضا فاتحة عصـــر الكشوف الجغرافية الاوربية الحديثة ، ولا شـــك فى أن المجتمعـــات الاوربية كانت تموج بأخبار الرحلات الكشفية التي أسفـــرت عن كشف العالم الجديد ، كما كان البرتغاليون قد نجحوا فى الوصـــول الى رأس الرجاء الصالح وعبروه الى الساحل الشرقي (فاسكو دي جاما 1498 م)، وان كان الوصول الى قلب القارة الافريقية ومعرفة حقيقة شبكة المجاري المائية بها واتجاه الانهار الرئيسية وعلاقتها بعضهـــا بالبعض الآخـــر (النيل ، الزمبيزي ، النيجر ، الكونغو) ظل حلما يراود عقول المكتشفين الاوربيين ويتحدى عزيمتهم لعدة قرون ، فقد ظل الكثير من اســـرار القارة غامضا حتى قرب ختام القرن التاسع عشر (44) .

وهذا يعطي فكرة عن مدى تقبل العالم الاوربي لكتاب الحسن بن محمد الوزان وللمعلومات التي أدلى بها عن المناطق الداخلية من القارة التي كان الاوربيون يجهلون عنها كل شيء .

على ان وجوده في هذا الوسط الاوربي ، ومع جمع من العلماء الاوربيين ـ في مقدمتهم الذين وصفوا بأنهم علماء النزعة الانسانية من الايطاليين (Italian Humanists) ـ وكان البابا ليو نفسه احد هؤلاء ـ بالاضافة الى اجادته لعدد من اللغات الاوربية ـ مكنه بلا شك من الاطلاع على العديد من انتاج الفكر الاوربي (45) ، وقد عوضه هذا عن افتقاره للمراجع العربية التي تركها في وطنه الاصلي ، كما ذكر هو .

كتاب وصف افريقيا وقيمته العلمية :

هذا الكتاب ليس الانتاج الوحيد للمؤلف ، لكنه الكتاب الوحيد له الذي نشر وتداولته الايدي وكان سبب شهرته ، وسنشير فيما بعد الى المجالات الاخرى التي كتب فيها ـ أو على الاقل ـ التي ذكر انه الف او سيؤلف فيها .

ويحيط الغموض بالظروف التي الف فيها الكتاب ، والطريقة التي اتبعها الكاتب في اثبات معلوماته ، ذلك أن الكتاب ظهر لاول مرة حين عثر (Ramusio) من اسرة مؤسسة (Hakluyt) في عام 1550 م على النسخة الخطية الايطالية للكتاب ونشرها في ثلاث مجلدات مع مقدمة له ، في مجموعة عن الرحلات (46) .

واعيد طبعها بعد ذلك بالايطالية في عام 1554 م ، كما طبعت طبعات اخرى بنفس اللغة بعد ذلك . ومما زاد في غموض الوضع ان الاصل الايطالي الذي نقل عنه (Ramusio) لم يعثر عليه ولم يعرف مصيره ، وقيل انه ربما ذهب في الحريق الذي شب بعد ذلك ، واتى على كثير من كتب المؤسسة (47) .

هذا ولا يذكر الكتاب المنشور شيئا عن الطريقة التي حصل بها (Ramusio) على النسخة الخطية ، ولا عن مصير هذه النسخة الخطية (48) .

ويثار جدل كبير حول الاساس الذي اعتمد عليه (ليو) عند كتابة كتابه بالايطالية ، هل كانت لديه نسخة باللغة العربية حملها معه الى ايطاليا ، وعلى اساسها وضع ترجمته الايطالية ؟

هذا ما يرجحه (Ramusio) ناشر الكتاب بالايطالية ، فعند حديثه عن حياة الرحالة يذكر انه اثناء اقامته فى روما ترجم للايطالية الكتاب الذي كان يحمله حين اسر ، وأن البابا (ليو العاشر) حين عرف بانه يحمل مؤلفا هاما فى الجغرافية ، قابله باحترام وطلب منه ترجمته للايطالية . وهذا بالطبع لا ينفي انه عند الترجمة ادخل تعديلات كثيرة على الكتاب . وقد ذهب الى نفس الراي كثيرون منهم (John Pory) صاحب الترجمة الانجليزية (49) .

وقد ذهب البعض الى تأكيد وجود نسخة عربية للرحلة ، ولكنها فقدت أثناء هجوم القراصنة على السفينة المقلة له ، والبعض ذكر أنها كانت موجودة طرف احد هواة جمع الكتب الخطية يدعى (V. Pinelli) (50).

بينما ينفي آخرون وفى مقدمتهم ماسينيون (Massignon) وجود مخطوطة عربية للكتاب ، معتمدين على ما ذكره المؤلف نفسه من أنه يدون مشاهداته وملاحظاته معتمدا على ذاكراته بعد مضي أعوام لم تقع فيها عينه على مصنف لمؤرخ عربي واحد (51) .

ومنذ ظهرت الطبعة الايطالية للكتاب بدا العالم الغربي يدرك اهمية الكتاب ، فترجم الى عدة لغات ، وظهرت عدة طبعات له باللغة الواحدة .
ومنذ عام (1556) قام (Jean Temporal) بترجمة للكتاب الى الفرنسية ــ طبعها فى مدينة (ليون) وذلك عن الطبعة الايطالية التي صدرت فى (1854) واهداه لولي عهد فرنسا فى ذلك الوقت (52) ،

واعيد طبع الكتاب بالفرنسية فى مدينة (انتورب) فى نفس العام (1556) . وفى نفس العام أيضا نشر (Joanes Florianus) فى (انتورب) ترجمة لاتينية للكتاب ، وكانت اللغة اللاتينية لا زالت لغة الطبقة المثقفة فى أوربا ، ولذا لاقت هذه الطبعة رواجا ضخما (53) .

وهذه الطبعة اللاتينية للكتاب تهمنا بالذات لان معظم الطبعات الاخرى أخذت منها ، لكن للاسف فقد وقعت فيها عدة أخطاء وبالاضافة الى اخطاء فى الترجمة نتج عنها ان الترجمة اللاتينية لكثير من الالفاظ لم تكن هي المقابلة للفظ الايطالي الاصلي — فقد وقع المترجم فى أخطاء متعددة أخرى حين حاول ان يشير للسنوات الميلادية المقابلة للتواريخ الهجرية المذكورة فى الاصل ، أو حين حاول أن يضيف تفسيرات — لم يقصدها المؤلف — لبعض الظاهرات التي أوردها — ولذا فان هذه الترجمة رغم أن لها الفضل فى جعل كتاب (ليو) فى متناول كثيرين بعد ذلك بعدة لغات — لكنها فى نفس الوقت مسؤولة عن كثير من الاخطاء التي تناقلتها الترجمات الاخرى .

وقد قام (John Pory) بأول ترجمة عرفت للكتاب باللغة الانجليزية ، ونشرت مؤسسة (Hakluyt) هذه الطبعة فى عام (1600) وان كان (Pory) قد وقع فى بعض أخطاء (Florianus) الا انه تخلص من بعض اخطائه ، مما يرجح أنه رجع أحيانا الى اللغة الايطالية (54) .

وفى عام (1665) ظهرت فى (روتردام) طبعة هولندية للكتاب ، كما ظهرت فى عام (1805) ترجمة المانية له ، وظهرت ترجمة اسبانية له فى عام (1940) (55) .

على ان من اهم طبعات الكتاب التي اشتملت على تعليقات علمية :

1 — الطبعة الفرنسية التي ظهرت لـ (Ch. Schefer) (1896 — 1898) (56) .

2 ـ الطبعة الانجليزية التي ظهرت فى 1896 بتعليقات وملاحظات للدكتور برون (Dr. R. Brown) (57) .

على أننا نشير الى أنه بالاضافة الى هذه الترجمات ، عملت عدة دراسات على أساس كتاب الوزان نذكر منها على الخصوص :

1 ـ البحث الذي اعده (Francis Moore) بالانجليزية فى عام (1738) عن غمبيا مستندا الى ما كتبه (ليو) عن الممالك الزنجية بغرب افريقيا .

2 ـ تحليل لبعض الحقائق التي أشار اليها ليو ـ نشره فى عام (1801) بالالمانية : (Bruns, Harfrath Paul Jacob)

3 ـ البحث القيم الذي وضعه (Lorsbach) مدير جامعة ناسو (Nassau) فى عام 1801 ايضا فى 20 صفحة مبرزا الاخطاء التي وقع فيها (Florianus) فى ترجمته اللاتينية . وكان هذا البحث دافعا لظهور ترجمة المانية دقيقة للكتاب فى عام 1805 (58).

4 ـ وصف الرحالة الغرناطي (Mormol Caravajal) لكثير من جهات افريقيا ـ مقتبسا من رحلة ليو ، وهذا الرحالة كان معاصرا لليو ، وقبض عليه وسجن لفترة أثناء حملة (شارل الخامس) على الجزائر .

5 ـ كتابات كل من لانجر (Langres de Tassy) ، ومورجان (Joseph Morgan) عن الجزائر ، مأخوذة مما كتبه ليو عن هذه البلاد ـ رغم أنها ظهرت بعده بمدة فى القرن الثامن عشر (59).

6 ـ البحث القيم الذي قام به (Louis Massignon) عن مراكش فى السنوات الاولى من القرن السادس عشر فى ضوء وصف ليو الافريقي (60) .

هذه بعض امثلة فقط ــ ويضيق المجال عن ذكر عشرات الكتاب الآخرين الذين ذكروا انهم مدينون له فى كتاباتهم ، او الذين نقلوا عنه او تاثروا به دون أن تكون لديهم الامانة الكاملة للاشارة اليه .

ولا نكون بعيدين عن الصواب اذا قلنا انه يندر ان كتب كاتب عن شمال أو وسط افريقيا منذ بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر ــ حين بدات الكشوف الجغرافية المتأخرة تكشف اشياء كثيرة كانت مجهولة عن قلب القارة ــ من غير أن يستعين بما كتبه ليو عن هذه البلاد ــ وقد صرح المستشرق الالماني هارتمان (Hartmann) فى القرن الثامن عشر بأن كتاب ليو كنز من الذهب ، ولولاه لخفيت عليه أشياء كثيرة (61) .

وحتى الرحالة الانجليزي بارث (Barth) الذي وصل الى تونس فى سنة 1849 ضمن حملة لكشف وسائل تنشيط التجارة عبر الصحراء الافريقية الكبرى للقضاء على تجارة الرقيق ، ووصل الى (كانو) وساح فى منطقتي (كانم) و (باجرمي) ووصل الى (تمبكتو) ــ نجده يبدي اعجابه بما كتبه ليو ، ودقته فى تسجيل ما رآه حتى أنه وعد بعمل ترجمة جديدة مع تعليقات لرحلة ليو ــ رغم مرور ما يقرب من ثلاثة قرون عليها ، لكن وفاته فى عام (1865) حالت ــ كما يبدو ــ دون اتمام هذا الوعد ، وان كان كثيرون فيما بعد وجدوا فى مشاهدات (بارث) مجالا للمقارنة بما سجله ليو (62) .

هذا ولم يقتصر اثر كتاب ليو على ذلك ، فقد امتد الامر الى رسامي الخرائط ، فقد ذكرنا ان كلا من (Ramusio) , (Pory) نشر خرائط عن افريقية بناء على وصف (ليو) للمناطق التي زارها ، وقد ظلت هذه الخرائط حتى وقت متاخر ــ المصدر الوحيد لرسامي الخرائط حتى ان كثيرا من المعالم الجغرافية والبلاد ظلت توضح على الخرائط كما هي رغم التغييرات الكثيرة المنتظرة التي طرات على الكثير من هذه المناطق نتيجة للظروف البشرية والطبيعية التي تعرضت لها (63) .

جولـــة سريعـــة مـــع كتـــاب وصـــف افريقيـــا (64) :

يصعب ان يعطي المرء صورة سليمة عن كتاب بهذا الضخامـــة ، ويحتوي على كل هذا القدر من المعلومات فى لمحة سريعة كهذه ، فان كل جهد يبذل فى هذا السبيل قاصر عن اعطاء صورة حقيقية للكتاب ، فلا غنى عن الكتاب نفسه ، ولذلك لا شك أن مكتبتنا العربية تنقصهـــا ترجمة علمية دقيقة لهذا الانتاج الذي سطره يراع هذا الرحالة المغربي العربي — خاصة وانه قد ترجم — كما اشرنا من قبل — تقريبا الى جميع لغات العالم — لكن الى ان يتم هذا العمل نشير هنا الى بعض ما تناولـــه الكتاب ، ولعل هذا يحفز الى أن يقوم احد المختصين أو لجنة مختصة بترجمتـــه .

الكتاب فى تسعة اقسام (ابواب) أطلق الوزان على كل قسم منها لفظ (كتاب) فهو فى تسعة كتب — كما يسميها المؤلف — ولا تتوزع هذه الكتب — فى الطبعة المشار اليها والتي ظهرت فى ثلاثة أجزاء — بالتساوي على الاجزاء الثلاثة ، خاصة أن الكتب ذاتها تختلف اختلافا بينا من حيث عدد الصفحات .

فالجزء الاول — لا يشتمل الا على الكتاب الاول للوزان — بالاضافة الى مقدمـــة (John Pory) واضافاته المتعددة وتعليقات (Dr. Brown) الدقيقة (من ص 1 الى ص 224 فى الطبعة التي أشرت اليها) .

بينما اشتمل الجزء الثاني — على الكتـــب الثلاثـــة التالية لليـــو (الكتاب الثاني والثالث والرابع) (من ص ب 225 الى ص 690) .

ويشتمل الجزء الثالث — على الخمسة كتب الباقية (من الخامس الى التاسع) (من ص 690 الى ص 1106) .

وتشمل الاضافة التي الحقت بالجزء الاول على مقدمـــات طويلـــة بقلـــم (Pory) ثم تعريف بالمناطق التي لم يتناولها ليو والتـــي

أضيفت للكتاب بهدف اعطاء صورة كاملة عن جميع أجزاء القارة ـ كما يذكر الناشرون (65) . فيبدأ بالاقاليم المطلة على البحر الاحمر ، ويتحدث عن الامبراطورية الاثيوبية (امبراطورية برسترجون (Prete Janni) (66) وزنجبار ، وموزمبيق ، وامبراطورية المونوموتابا (67) ، وارض الكافر (Kaffir) (68) ، ثم مملكة الكنغو (69) ، وانجولا ـ ثم ممالك بنين ، وغينيا ، وسيراليون ، والراس الاخضر ، وغمبيا ـ نفرب القارة .

ثم تلى هذا وصف ودراسة للجزر التي اهملها ليو والواقعة حول السواحل الافريقية (سوقطرة ، والجزر المقابلة للساحل الشرقي للقارة ، وسنت هيلانة ، وساوتومي ، وفرينانوبو ، والراس الاخضر ، وكناريا ، ومادبرة ، وازور) ـ وقد استنفدت هذه المقدمات وتعليقات الدكتور برون عليها 122 صفحة .

اما **كتاب ليو الاول** ، فيتحدث عن افريقيا وسكانها بصورة عامة .

فيبدأ بتفسير سبب تسمية القارة بافريقيا ، ويرجع فى ذلك الى ابن خلدون وابي الفداء وغيرهما . ثم يعطي تحديدا عاما للقارة ـ من النيل شرقا ـ كما يقول ـ الى المحيط غربا (70) .

ويقسم القارة الى اربعة اقسام (بلاد البربر ، نوميديا ، ليبيا ، أرض الزنوج) ويعود فيقسم كل من الاقسام الاربعة السالفة الذكر الى اقسام (ممالك) (71) .

ثم ينتقل لدراسة سكان افريقيا فيتحدث عن أصلهم ، وقبائلهم ، ويتعرض لدراسة وتحليل عادات وطبائع الافارقة من سكان صحراء ليبيا بالذات وفى الاقاليم الواقعة غرب مصر (72) .

ويشير عند حديثه عن الديانات المنتشرة فى افريقيا الى انه سيخصص دراسة خاصة يتناول فيها على الخصوص الاختلافات الدينية بين المسلمين في افريقيا وآسيا (73) .

ويتحدث عن اللغات المنتشرة فى افريقيا ــ فيناقش قضايا هامة جدا لا زال بعضها مطروحا للبحث اليوم ــ مثل اتجاه الغزاة دائما لفرض ثقافتهم ولغتهم على البلاد المغلوبة على امرها ويضرب امثلة بما فعلــه الاتراك وغيرهم بالشعوب التي خضعت لهم (74) .

ويتساءل هل كانت للافريقيين لغة او لغات أصلية ــ خاصة بهــم وينتهي بوجود لغات افريقية أصيلة (75) .

ويورد ملاحظات مناخية دقيقة تتعلق بالرياح التي تهب على القارة فى شهور السنة المختلفة والتغييرات الجوية التي تتعرض لها (76) .

ويتعرض لموضوع طريف يتعلق بأعمار الافارقة وعلاقتها بالبيئــة التي يعيشون فيها (77) .

كما يتعرض لبعض الامراض التي يتعرض لها الافارقة (كالجدري) وكيف وصلت للقارة (78) .

ويتحدث عن بعض الخصائص المميزة لهم كولعهم بالفن والعلــوم الرياضية والفلسفة والتنجيم ، وعن بعض الصفات الغالبة عندهم كالوفاء والشرف ، وحب الترحال والتنقل (79) .

كما يشير لبعض الرذائل والنقائص التي تشيع بينهم كحدة الطبع وسرعة الغضب (80) .

ولعل هذا يدحض أقوال الذين اتهموه بعدم الدقة بحجة محاولــة اعطاء صورة وردية عن القارة التي ينتمي لها (81) .

وقبل نهاية هذا الكتاب يعتذر الكاتب عن تركيــزه الحديث عــن افريقيا ــ بأنها القارة التي ينتمي لها وتثقف فيها واتيحت له فرصــة التجول فيهـــا (82) .

فالكتاب الاول عبارة عن دراسة عامة للقارة تناول فيها النواحي الطبيعية المناخية والاقتصادية والاجتماعية والبشرية – ولا شك فى أن هذا يدل على دقة فى الملاحظة مع نظرة شاملة والمام بعدد من المعارف والعلوم – لعلنا نفتقر اليه اليوم فى اطار ما جنحنا اليه من التخصص الدقيق والمفهوم الخاطىء له – على ما اعتقد .

بعد هذه الدراسة العامة يبدأ الجزء الثاني من الطبعة المذكورة والذي كما قلنا يضم الكتب الثلاثة (الثاني والثالث والرابع) . وفيه يقدم دراسة تفصيلية لبلدان الشمال الافريقي مبتدئا من الغرب ويتجه شرقا حتى حدود مصر .

وقد خصص **كتابه الثاني** عن مراكش ، فتحدث عن مساحتها ، وعن تأسيسها ، وتطرق للحديث عن حوانيتها ، ومخازن الكتب بها ، وعن منار الكتبية العظيم (83) . والذي بني هو ومنار اشبيلية وكذا (مسجد حسان) بالرباط على نسق واحد ، ويقال أن مهندسا واحدا هو الذي وضع تصميمها كلها ، واشار فى هذا الباب ايضا الى بعض مدن (دكالة) ، كما اشار الى (أسفي) و (أزمور) (84) ووقوعها فى يد البرتغال ، واشار الى الرحلة التي قام بها عمه كسفير عن ملك فاس الى ملك (تمبكتو) ، وقد رافقه الحسن بن محمد الوزان فى هذه الرحلة ، ويذكر أشياء طريفة بخصوص هذه الرحلة فيذكر مثلا أن عمه تلقى دعاوي من بعض الامراء فى المناطق المجاورة ليزورهم وذلك لشهرته لكنه اعتذر بأنه موفد فى مهمة رسمية فلا يجب أن يغير خط السير المرسوم له ، ولذا أوفده هو بهدايا وبقصائد مدح لهؤلاء الحكام (85) ، ويتحدث عن بعض الجبال القريبة من (سجلماسة) و (دارا) ، وانها تشتمل على كميات كبيرة من (النترات) لكن الاهالي لا يستغلونه على الوجه الاكمل (86) .

وهو هنا يتحدث عن وطنه الذي عاش فيه ، فهو حديث العارف المتمكن المتعمق ، بل يوغل فى أعماق التاريخ ليحدثنا عن أصل كل مدينة ومؤسسها وسبب تسميتها والتطورات التاريخية التي مرت بها ، وحين يصل للمدينة الحديثة فى عصره يتحدث عن كل نواحي الحياة فيها.

وعندما يتعرض للثغور المغربية الهامة مثل (اسفي) و (أزمور) يسهب فى الحديث عن سقوطها فى أيدي البرتغال وما ترتب على ذلك من هجرة كثيرين من سكانها للسكنى فى (سلا) أو فى (فاس) هاربين من حكم البرتغـــال (87) .

اما **كتابـــه الثالـــث** ـ فيخصص ليو شطرا كبيرا منه للحديث عن فاس (88) ، ولا يكاد يترك صغيرة أو كبيرة تتصل بها الا ويذكرها ، فهو يتحدث عن تشيدها ، ثم يصف المدينة ومنازلها التي يصفها وصفا يذكرنا بالمنزل المغربي اليوم ـ فهناك صحن فى الوسط تحيط به الفرف، ويتحدث عن جامع القيروان بها ويقدم له وصفا دقيقا ، ويتحدث عـــن مدارس فاس ومستشفياتها وحماماتها وفنادقها واسواقها ، بل وعـــن طواحين الفلال بها ، وحديثه يدل على دقة الملاحظة والتحليل ، فهـــو يوضح كيف أن النقابات الطائفية التي تجمع أصحاب المهنة الواحدة تقوم على اساس نظام تكافلي سليم ، وحين يتحدث مثلا عن صناع السروج يلفت نظره ـ ذوقهم السليم واتقانهم لصناعتهم فهم يختارون أحســـن الجلود للمناطق البارزة للعيان ، بينما يستبقون الجلود الاقـــل جـــودة للمناطق غير الظاهرة (89) .

وحين يتحدث عن منطقة (القيصرية) بفاس يرجع التسميـــة الى (يوليوس قصير) والنفوذ الروماني بشمال افريقيا (90) .

وينتقل للحديث عن المنطقة السكنية بفاس بحدائقها الغناء ، وعن نظام الادارة والحكم فيها باعتبارها حاضرة الحكم ، ويتطرق للحديث من التقاليد المرعية فى القصر الملكي بها (البروتوكول) (91) .

كما يتحدث عن المجتمع الفاسي فيذكـــر عـــادات السكـــان فى الزواج (92) ، وفى الاحتفالات الدينية وفى الاكل والشرب وطبقـــات المجتمع ولا يترك حتى المنجمين وقراء الطالع والسحرة والباحثين عن الثروات التي يعتقدون أنها مخباة بين انقاض الاماكن القديمـــة ، ومـــن

يتجولون فى الطرقات يحملون حيات ترقص على الانغام ويرتزقون من ذلك (93) . كما يذكر ألعابهم وكيفية قضاء أوقات الفراغ (94) .

ويتحدث عن فاس الجديدة التي تبتعد عن المدينة القديمة بميل تقريبا ، وكانت تسمى المدينة البيضاء (95) .

ويتحدث الوزان ــ عن (الرباط) فيذكر أن الذي بناها هو (يعقوب بن يوسف المنصور) وانه بناها على البحر المحيط لتكون مدينة بحرية يسهل فيها مرابطة جيشه والسيطرة منها على المناطق الاسبانية الخاضعة له (96) .

وعن (سلا) ذكر أن الرومان هم الذين بنوها على (نهر بورقراق) على بعد ميلين من المحيط .

أما (المعمورة) فيذكر أن يعقوب المنصور اسسها عند مدخل نهر (سبو) لتكون منطقة دفاعية ضد محاولات الغزو الاجنبي ، ويذكر انها كانت ميناء تجاريا تتجر فى (العسل ، والشمع ، والصوف ، والجلود ، والاخشاب) لكنها فقدت أهميتها التجارية بعد احتلال البرتغاليين لها . ويتحدث عن معركة المعمورة التي شن فيها الوطاسيون فى (يوليو 1515) هجوما بطوليا على البرتغاليين فقتلوا ما ينيف عن أربعة آلاف وفر الباقون (97) .

ويصف (مكناس) فيتحدث عن موقعها ، وتسميتها ، وعن حدائقها وفاكهتها الممتازة (العنب ، والتين ، والبرتقال ، والخوخ) ــ وعن قنوات المياه التي تأتي بالمياه النقية للمدينة من نافورة على بعد ثلاثة أميال منها . ويتحدث عن الصراع الذي قام بين حكامها وبين ملك فاس وحصار الملك لها ــ لكنها استطاعت أن تقاوم الحصار لانها مدينة حصينة وغنية (98) .

وينتقل للحديث عن مدن المغرب الاخرى كمدينة (القصر الكبير) فيذكر قصة طريفة عن ظروف بناء (المنصور) سلطان مراكش لها ، فقد

ضل الملك الطريق أثناء رحلة صيد فى جو عاصف فأكرمه صياد وآواه وقدم له (عنزته) الوحيدة . فكافأه الملك بمنحه قصرا كان نواة للمدينة العظيمـــة (99) .

وفى حديثه عن مدينة اصيلا (Arzilla) (100) ، يـــذكـــر ان الرومان هم الذين بنوها ، ويتابع الحديث عن تاريخها حتـــى استيـــلاء البرتغال عليها ، ثم كفاح (محمد البرتغالي) لاستردادها ـ وقد شارك ليو نفسه فى بعض الحملات التي ارسلهـــا ملك فاس ضـــد البرتغاليـــن فى اصيـــلا (101) .

ويتحدث بنفس المنهج عن (طنجة) و (القصر الصغير) و (سبتة) و (تطوان) و (المهدية) .

ولا شك فى أن (ليو) يمدنا فى هذا الجزء من كتابه بمعلومـــات هامة عن بلدان المغرب العربي التي خصص لها الكاتب جزء كبيرا مـــن جهده ، والتي كان على علم ودراية بتطورها التاريخي ، فسجل ذلك بكثير من الدقة . ويعتبر كتابه عن الثغور المغربية وكفاحها ضد الغزو البرتغالي من اول وادق الكتابات فى هذا المجال ، فهو مرجع أصيـــل فى هـــذه الاحـــداث .

ويخصص ليو **الجـــزء الرابـــع** ـ او الكتاب الرابع كما يسميه ـ للحديث عن مملكة (تلمسان) (102) فتحدث عن حدودها ويتتبع تاريخها حتى حكم الاسرة (الزيانية) التي يقول انها بقيت هي واتباعها تحكمها ما يقرب من ثلاثمائة عام (103) .

ويوضح الظروف التي انتهت بوقوع مملكة تلمسان بين فكي الكماشة الاستعمارية ـ الاتراك العثمانيون من جهة والقوى الاستعمارية الاوربية (الاسبان بالذات) من جهة أخرى .

ويتابع الحديث عن مدينة (تلمسان) ذاتها وتطورها من مدينـــة صغيرة حتى وصلت الى ذروة مجدها فى عهد حكم أبو تاشفين عبـــد

الرحمن (791 هـ — 1389 م) ، ويتحدث عن مساجد المدينة ومعاهدها ومتاجرها وسكانها ، والعادات المتبعة فى قصور حكامها — بنفس النظام الذي اتبعه فى الحديث عن (فاس) .

وينتقل الى الحديث عن (وهران) و (مستغانم) ثم (الجزائر) التي كانت فترة خاضعة لنفوذ ملك تلمسان ، لكن حين ضعفت الاسرة الحاكمة بتلمسان اصبحت الجزائر هي الاخرى مطمع انظار الاتراك العمثانيين والاسبان . وتحدث عن ظهور (عروج) وتدخله فى شؤون الجزائر (1516) وقتله (1518) وانتقال الامر بعده الى اخيه (خير الدين بربروسا) الذي وضع نفسه والمناطق التي فى حوزته تحت نفوذ السلطان سليم العثماني وضرب السكة باسمه فى الجزائر — وبذا دخلت هذه البلاد فى مرحلة جديدة من تاريخها (104) . . . وهكذا ختم الكاتب كتابه الرابع.

اما **الكتاب الخامس** فهو عن مملكة بجاية وتونس — فيصف مدن بجاية ، وقسنطينة (105) ، وبونة ، وقرطاج (106) ، وتونس (107) ، والمهدية (108) ، والقيروان (109) ، وصفاقس وقابس — ويتحدث عن ظروف تشييد كل منها ، وآثارها الهامة ، واهم الاعمال التي يقوم بها السكان ، وما لفت نظره من حياة الناس وتقاليدهم وعاداتهم . بل يستطرد الى الحديث عن تاريخ هذه المدن والاحداث الهامة المتصلة بها، ويشير الى بعض الظاهرات الطبيعية والجغرافية كتعرض المواني الهامة لطغيان البحر — ثم يتحدث عن جزيرة (جربة) (110) ، الواقعة على مسافة قليلة من (قابس) ويشير الى انها المكان الذي اسره فيه القرصان الايطاليون وحملوه الى روما ، فيتحدث عنها باسهاب ويذكر ان تربتها خصبة فيزرع بها البلح ، والزيتون ، والكروم ، والفواكه الاخرى ، وان سكانها يشتهرون بصناعة نوع خاص من الاقمشة يتجرون به فى تونس والاسكندرية ، ويذكر ان ملك اسبانيا (Firdinando) حاول فى أيامه الاستيلاء على الجزيرة لكن سكانها استطاعوا ان يوقعوا بالجنود الاسبان ، لكن أرسل الامبراطور (شارل الخامس) بعد ذلك اسطولا اجبر سلطات الجزيرة على توقيع اتفاق تدفع بموجبه جزية سنوية للاسبان قدرها 5 000 دينار ذهبا .

اما **الكتـــاب السادس** ـ فقد تحدث فيه عن طرابلس ، ولبدة ، وفزان ، ووصف صحراء ليبيا ، وقد قسمها الى خمسة اقسام حسب القبائل التي تغلب على كل قسم منها .

وخصص**الكتـــاب السابـــع** ـ (ص 817 ـ 837) للحديث عـن ارض الزنوج (ممالك السودان الغربي) وهو يحددها بخمس عشرة مملكة يقول انها كلها تقع بالقرب من نهر النيجر أو احد فروعه . ومن هــذه الممالك التي افاض في شرحها (مملكة جني) وتحدث عـــن حدودهـــا ومساحتها وغلاتها (الشعير ، والارز ، والقطن ، والاغنام ، والاسماك) ، وذكر انهم يبادلون القطن على الخصوص مع البربر بالاقمشة الاوربيـــة والاواني المعدنية والاسلحة وذكر أن عملتهم ذهبية ليس عليها اية كتابة أو طابع ، ويستغل الاهالي المجاري المائية للتجول في قواربهم التـــي يصنعونها من تجويف النخيل وذلك لترويج بضائعهم (111) .

اما (مملكة مالي) فيذكر انها تمتد لمساحة 300 ميل على طـــول شاطىء أحد روافد النيجر ، وتتميز برقيها وتقدمها ، فبها المستشفيات والمعابد التي تقام فيها ايضا حلقات الدروس ، وقد انتشر الاسلام بين سكانها ووصلت قوتها الى درجة أن استطاعت بســـط نفوذهـــا على مساحات واسعة واشتهرت بثروتها وبتصديرها للذهب والعبيد (112) .

ويتحدث عن (تمبكتو) فيذكر ان مؤسس المدينة ذاتها هو (منسا سليمان) في سنة (610 هـ) وبها معبد وضع تصميمه عامل من غرناطة ، وتكثر بها المراعي والزراعة ، ويتحدث عن القصر الملكي والتقاليد المتبعة (من يقابل الملك يركع على ركبته ، ويهيل التراب على راسه) وبها عدد من القضاة والاطباء والعلماء ورجال الدين ، وعملتها ذهبية دون اية علامة مميـــزة (113) .

وتحدث عن (جاو) عاصمة (امبراطورية صنغاى) وذكر انها تقع جنوب تمبكتو بـ 400 ميل تقريبا وتعتبر مركزا تجاريا هاما للاقمشـــة الواردة من بلاد البربر ، والقمح ، والسمك ، والخمور ، والفواكـــه ،

والارز ، كما توجد بها سوق كبيرة للرقيق ـ ويذكر انه لا يوجد نوع من القماش أو غيره معروف فى أوربا لا نجده فى أسواق جاو ، والملح هنا من اغلى السلع لانه يرد من (تغازه) على مسافة طويلة ـ ويصف قصر الملك الذي يدعـــى ســـني علي (Sonni Ali) وحرسه من الخيالة والمشاد، ومستشاريه (114) .

واشار الى مملكة (جوبير) من ممالك الهوسا وهي تقع شرق (جاو) ويذكر انه حين يفيض النيجر يغطي الاراضي هنا بالمياه ويقوم الاهالي بالقاء البذور فى المياه ويتركونها ، ويذكر أن مملكة جوبير تعرضـــت للغزو من (أسيكا) ملك تمبكتو الذي قتل ملك جوبيـــر واتخـــذ اولاده كعبيـــد (115) .

واشار الى مملكة اخرى ، شرق النيجر وهي مملكة (كانو) وتشتهر بخصوبة تربتها حيث تزرع القمح ، والارز والقطن والفواكه ، وقد غزاها (أسيكا) ، لكنه عقد اتفاقا على أن تدفع (كانو) ثلث دخلها السنوي (116).

أما مملكة (بورنو) ـ فهي تقع شمال (كانو) ، ويذكر أن ملك بورنو يقوم كل عام بغزوة ويعود من غزواته بالعبيد وهم يمثلون سلعة رئيسية ، ويذكر أن الذهب هنا كثير ، فكل الاواني والاطباق التي يستخدمهـــا الملك بل سلاسل الكلاب الخاصة به من الذهب .. ويصف حياة الاهالي صيفا وشتاء ـ فقد قضى هنا ـ كما يقول ـ شهرا كاملا (117) .

ويصف ليو مملكة النوبة التي يقول انها تمتد من الغرب صوب النيل حتى كردفان وشمالا حتى حدود مصر ، وأن (دنقلة) اشهر مدنها ، ولها تجارة مع مصر والسكان خليط من العرب ، والبجه والزنوج ويمدون سلطانهم حتى (سواكن) على البحر الاحمر (118) .

وقد أشرنا الى ان الكتاب السابع الخاص بممالـــك الســـودان الغربي له أهمية خاصة لان الكاتب يعتبـــر من أوائل الذين زاروا هـــذه المناطق والقوا عليها الاضواء فى قت كان العالم الخارجي يجهل عنها كل

شيء كما يتضح من الخرائط الجغرافية التي رسمت للقارة فى ذلك الوقت .

هذا وقد خصص **الكتاب الثامن** لمصر التي زارها كما يقول ثلاث مرات فى طريقه للقسطنطينية ومنها ، وهو هنا يسجل ملاحظات طريفة عن مشاهداته تدل على دقة الملاحظة – فيتحدث عن اصل تسمية مصر ويرجعها الى (مصرايم) بينما يشير الى الفسطاط بأنها تسمى حاليا (مصر القديمة) ويشير الى ضيق الوادي الواقع بين الهضبتين الشرقية والغربية فى مصر ، وعند حديثه عن فيضان النيل يذكر ان المياه تفيض فيتعذر الوصول الى مناطق كثيرة كالجزر ، وفى رشيد يشير الى مضارب الارز بينما يشير فى الاسكندرية الى (عامود بومبي) وغيره من الآثار الرومانية ، ويشير الى المحلة وشهرتها بالغزل اليدوي ، وديروط وشهرتها بمعاصر قصب السكر ، وعند الحديث عن القاهرة يتحدث عن بناء جوهر الصقلي لها ، وابواب القاهرة ، وحوانيتها ، وعن مدرسة السلطان الغوري ، وعن حوانيت العطور والعنبر فى الغورية ، وتجار خان الخليلي ، وتجار الكتب بجوار الازهر الشريف ، كما يشير الى مناطق باب اللوق والازبكية وجزيرة الروضة ومقياس النيل بها ، كما يتحدث عن عادات القاهريين ولم يغفل حتى الاشارة الى تجار المياه من السقايين ، وطريقة تفريخ البيض فى افران خاصة ، كما يشير الى قصور المماليك بالجيزة . هذا وقد تنقل بنا الوزان فى مختلف مدن واقاليم مصر من (الاسكندرية) شمالا الى (اسوان) جنوبا واشار الى تجارتها مع النوبة . كما تعرض للمناصب المدنية والعسكرية فى السلطنة المملوكية – ولا شك فى أن (ليو) يعطينا هنا صورة دقيقة لمصر المملوكية التي زارها حوالي عام 1517 فقد كان بها اثناء وجود السلطان سليم بها (119) .

اما **الكتاب التاسع** والاخير . فهو عن الانهار الرئيسية والمخلوقات الغريبة والنباتات والمعادن الافريقية . . .

ومن جهة الانهار يبدأ من الغرب من نهر تنسيفت الذي يصب فى المحيط الاطلسي وتقع أسفي قرب مصبه ، ثم ام الربيع ، بورقراق ،

وهكذا حتى يصل لنهر النيل الذي يشير الى الجهل بمنابعه ، فالبعض يقول انه ينبع من جبال القمر ، لكنه يذكر ان التجار الاثيوبيين الذين يحضرون لدنقلة يذكرون أنه ينبع من بحيرة ضخمة في الجنوب .

والجزء الذي كتبه عن الحيوانات والنباتات الافريقية ليست له قيمة الاجزاء الاخرى ولعله استقى الكثير من معلوماته من الكتب الاخرى ، وقد اشار هو الى (Plinie) (120) – لكنه على كل تتضح فيه طريقته التحليلية ، فحين يتحدث عن الفيلة أو الزراف أو الجمال أو الخيول أو النعامة او الطيور الجارحة أو الحيوانات المائية كالتماسح او الجراد الذي يهاجم المدن فيقضي على الزرع وينشر الخراب – يثير بعض المقارنات ، كما يشير لبعض الظاهرات الطريفة فيذكر مثلا بعض أنواع الجمال السريعة او التي تتميز بالقدرة على حمل الاثقال ، ويشير الى أن العرب الذين يملكون عددا كبيرا من هذه الجمال يعيشون (كاللوردات) في حرية كاملة في التجول في الصحراء مع توفر الثروة (121) .

أما ما ذيلت به طبعة مؤسسة (Hakluyt) التي أشرنا اليها فهي اضافات عن ثلاثة امبراطوريات أو ممالك ، هي امبراطورية برت جون او بريسترجون (Prete Janni) ، والمونوموتابا ، ومملكة المغرب وسوس والفزان (122) ، ثم عن مناطق الاستعمار الاسباني والبرتغالي والقلاع التي أسسوها على الجزر والموانىء الافريقية (123) ، ثم محاولة لدراسة المعتقدات الدينية المنتشرة بين الافارقة (الوثنية ، اليهودية ، المسيحية ، الاسلام) (124) ، وفي هذا المجال اشارة للمسيحية في النوبة ، ومملكة الكنغو ، وانجولا (125) – ومحاولة البرتغال والبابوية تحويل تبعية الكنيسة الاثيوبية الى كنيسة روما الكاثوليكية لانها كانت تابعة لكنيسة الاسكندرية – لكن رفض الامبراطور الاثيوبي ذلك (126) .. وعلى كل هذا الجزء قليل الاهمية .

لكن الخرائط التي زود بها الكتاب (8 خرائط) وهي من وضع (Mr. Ravenstein) ، وفهرس البلاد والقبائل الواردة في الكتاب وهي من وضعه ايضا وتوضح مواقعها على الخرائط المذكورة بالنسبة لخطوط

الطول والعرض (127) ، وكذلك الفهرس الابجدي الاعلامي (128) — جهد طيب وقيم ومفيد .

تقييم كتاب (وصف افريقيا) :

لا شك فى أن التقييم السليم ، يستلزم أن ننظر اليه فى حدود العصر الذي كتب فيه (القرن السادس عشر) . وفى داخل هذه الحدود يظهر أن الكثير من معلوماته فريدة — وبخصوص المناطق التي زارها الرحالة ورآها بعينيي راسه تتميز كتابته عن هذه المناطق بالاصالة والدقة ، وينطبق هذا القول على وصفه التفصيلي الدقيق لبلاد المغرب بأقاليمها المتعددة ومدنها المختلفة ، كما ينطبق على بلاد السودان الغربي . وفيما يتعلق بهذه المناطق الاخيرة ، فان الابحاث المتأخرة — كما اشار (Schefer) الذي يرجع اليه الفضل فى ترجمة الكتاب الى الفرنسيه اثبتت صدق اقواله حتى فى المواضع التي اثارت فى الماضي بعض الشكوك حولها (129) .

ويذكر هذا العالم « انه على مدى ثلاثة قرون لم يستطع كاتب او عالم تحدث عن افريقيا — أن يتجاهل هذا المؤلف النفيس (130) » .

وقد أشرنا من قبل الى عشرات الكتاب الذين استفادوا من كتابه .

وان كان الكتاب يضم الى جانب مشاهدات (ليو) الشخصية — معلومات مستقاة من مصادر اخرى لكن هذا لا يقلل من قيمة الكتاب ، ويشير المؤلف بصراحة الى ذلك فى خاتمة كتابه فيذكر : « هذا على وجه العموم ما ابصرته من الاشياء الغريبة التي علقت بذهني انا — جيوفاني ليوني ، عن جميع افريقيا التي عبرتها من اقصاها الى اقصاها — وقد دونت بجد واجتهاد ، ومن يوم لآخر تلك الاشياء التي رأيتها بعيني راسي وبدالي انها تستحق الذكر ، وما لم اره بنفسي بسبب ضيق الوقت او صعوبة الطريق فقد جهدت فى الحصول عليه من أهل الثقة ممن شاهدوه بأنفسهم — ثم بذلت جهدي فى جمع شتات هذه المادة وصياغتها فى شكل

كتاب انتهيت من تدوينه أثناء وجودي بروما ـ وذلك فى اليوم العاشر من شهر مارس لسنة 1526 من ميلاد المسيح » .

وقد أشار ماسينون (Massignon) بالذات الى أن الانتاج الفكري للرحالة ليو الافريقي كان له تأثير قوي على العالم الاوربي (131) .

ويكفي أن نتأمل فى عدد اللغات التي ترجم اليها الكتاب ، وعدد الطبعات التي طبعت منها لنعرف مدى الادراك العالمي لاهميته ـ والى وقت ليس ببعيد كانت اسماء الاماكن التي تظهر على الخرائط تعتمد على وصفه رغم أن احتمالات التغيير نتيجة العوامل الطبيعية والبشرية ثبت انها ظاهرة واضحة فى هذه البلاد أكثر من غيرها .

وحتى الجغرافيين ، والرحالة والكتاب المتأخرين فى القرن التاسع عشر لم يستطيعوا ان يتجاهلوا فضله (132) .

ولعلنا لا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا قلنا انه حتى يومنا هذا ـ فان المسافر الذي يتنقل فى المغرب أو فى غيره من المناطق التي زارها (ليو) وقدم وصفا لها ، لا يستطيع الا ابداء دهشته من التوافق العجيب بين بعض ما يشاهده من مظاهر الحياة وبين ما سجله (ليو) رغم مضي هذه السنوات الطويلة ـ وهذا يدل على ما اتصف به هذا الرحالة من دقة الملاحظة حتى للاحداث البسيطة التي قد يمر بها المشاهد العادي مر الكرام ـ ولعل ممارسته لوظفية كاتب عام دربته على أن يسجل الملاحظات بدقة وان يتنبه لكل ما يقع تحت بصره . وهناك دلائل قوية حتى من واقع الحياة اليوم فى هذه الجهات تجعلنا نحترم ليو ونحكم بأنه جدير بالثقة وتلزمنا بتقدير ما قدمه من وصف لكثير من المدن ، ولحياة الناس بها . أما تفسيره للظاهرات التي تقع تحت بصره فهو يدعو للاحترام أيضا ، فمثلا نجده يبرز بعض الظاهرات الاجتماعية والعادات الغريبة فى المغرب ، لكنه يعللها بميل الناس للمحافظة على عادات أجدادهم ، وحين يتحدث عن استخدام الحكام للجنود فى جمع الضرائب ينتقد ذلك ويشير الى أن الناس لا يعترفون بسلطة السلطان الا اذا كان قادرا على أن يكفل

لهم الحماية والامن ـ وبينما نراه يتحدث عن الجيوش وتسليحها نجده لا ينسى الحديث عن أسرى الحروب ومصيرهم التعس فى ذلك الوقت وهو لا يتحدث عن طبقة واحدة من المجتمع دون الاخـــرى ـ فبينمـــا يتحدث عن قصور الحكام وما يتبع فيها من نظام (بروتوكول) ـ نجـــده يتحدث عن عادات الناس العاديين وما يزاولونه من صناعات وما يؤثـــر على تصرفاتهم من تقاليـــد .

وقد اعتبره البعض انه يمثل قمة ونهاية عصر الحضارة العربيـــة الاسلامية الزاهية التي ازدهرت فى اسبانيا (133) .

هذا ولكتاب الوزان اهمية خاصة ، أرجو أن نؤكدها هنا لانه يبدو أن الذين يكتبون عن الاستعمار الاوربي فى افريقيا خاصة من العرب لم يعطوها حقها من الاهمية ، وهي انه من القلائل الذين عاصروا احـــداث الاستعمار البرتغالي لثغور الشمال الافريقي بل انه شارك فى هـــذه الاحداث ، فكتابه عنها من اهم ما كتب فى هذا المجال .

على أن الذين وجهوا اليه النقد ، واتهموه بالمبالغة وعدم تحـــري الدقة مثل (Morgan) و (Chenier) ـ لم يستطيعو ان ينكروا فضله فاعترفوا أنه يستحق الشهرة التي ظل يتمتع بها لقرون (134) .

هذا ولا بد من الاشارة الى أن المنهج الذي اتبعه ليو فى كتابه لا يمكن أن نرجعه لنمط (الرحلات) أو (الزيارات) ـ أي الرحلة بقصـــد الحج الذي اشتهر به غيره من الكتاب المغاربة بالذات ـ كما انه لا يمكن ان نرجعه لنمط (المسالك) أو لنمط (الخطط) الـــذي يتمثـــل فى المصنفات الضخمة التي اشتهر بها بعض الكتاب كالمؤرخ المصري تقي الدين احمد بن علي المقريزي (1364 ـ 1442) ، وهو ليس مؤلفا (نقليا) أو جامعا لعدة علوم أي موسوعي (Encyclopaedist) ـ لكنـــه فى الحقيقة يجمع بين كل هذه الانماط ، كما يعكس صورة الثقافة المتعددة الجـــوانـــب .

مـؤلفـــات ليـــو الاخـــرى :

اشار ليو فى كتابه (وصف افريقيا) الى عدة مؤلفات اخرى له ، كما اشار الى مجالات أخرى يعتزم الكتابة فيها ، ومما يدعو للاسف حقا الا نعثر على هذه الكتب التي لا شك ــ قياسا على كتابه المنشور ــ لو عثر عليها لاضافت الكثير الى معلوماتنا خاصة وان بعضهـــا يتعلـــق بمشاهداته اثناء زياراته لمناطق هامة وقد وعد بتخصيص كتاب خاص لهـــا .

ويذكر (Massignon) ان ليو الف باللاتينية كتابا تناول فيه سير ثلاثين من العرب الذين اشتهروا فى الفلسفة والطب ، وان (Hottinger) قام بنشر هذا الكتاب فى عام (1664) . وان أهمية هذا الكتاب ترجع الى انه يمدنا بمعلومات قيمة عن تاريخ تطور العلوم عند العرب (135) .

وقد أماط العلامة (Casiri) القناع عن كتاب آخر (لليو) وهو عبارة عن معجم عربي ــ عبري ــ لاتيني ــ طبي ، الفه من أجل طبيـــب يهودي صديق له وهو فى 117 صفحة ، ولا تزال مخطوطته محفوظة فى مكتبة الاسكوريال ــ وقد انتهى منه ــ كما يذكر فى خاتمته فى آخـــر يناير 1524 م . اي انه سابق للانتهاء من كتاب وصف افريقيا الـــذي يشير فى نهايته الى انه كتبه فى روما فى 10 مارس عام 1526 (136) .

وختم ليو قاموسه الطبي هذا بقوله :

« فرغ من نسخ هذا الكتاب العبد الفقير الى مؤلفه يوحنى الاسد الغرناطي المدعو قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسي ــ فى آخر يناير عام اربعة وعشرين لتاريخ المسيحيين ــ الموافق ثلاثين وتسعمائة لتاريخ المسلمين ، وذلك بمدينة بولونيا من بلاد ايطاليا ــ برسم المعلم الحكيم الطبيب الماهر يعقوب ابن شمنون الوفي الاسرائيلي (137) » .

وقد اشار الوزان فى كتابه وصف افريقيا الى انه سيسجل مشاهداته عن رحلاته فى آسيا واوربا فى كتاب آخر لانه يخصص كتابه هذا للقارة

الافريقية ، ولا ندري هل وضع هذا الكتاب ام لا ، اذ لم يعثــر لــه على اثــر (138) .

كذلك يستدل من اشاراته فى كثير من المواضع فى كتاب وصف افريقيا الى انه اعد مختصرا لتاريخ الاسلام (139) . وأشار الى كتاب له جمع فيه ما عثر عليه من الاشعار الوطنية على الاضرحة والقبور (140) .

كما أشار الى كتاب آخر له فى العقائد والفقه الاسلامي — وارجع هو القارىء الى هذا الكتاب الذي لم نعثر عليه بعد (141) .

وأشار الى كتاب له فى الاعياد الاسلامية (142) .

هذا بالاضافة الى اشارته الى أنه سيخصص كتابا آخر للمناطق التي زارها فى آسيا ، ورحلته من فاس الى القسطنطينية ومنهــا الى مصــر (143) .

والحقيقة اننا لا نملك الا أن نقول ان تأليف الرحالة فى فروع متعددة من العلوم المختلفة بالاضافة الى اتقانه عدة لغات يدل على سعة افقه وعلى علمه الواسع والمامه بكثير من ألوان المعرفة مما يصعب على فرد واحد من الافراد العاديين الالمام به .

* * *

هذه لمحة عن حياة هذا الرحالة العربي المغربي ، وعن مؤلفه الشهير (كتاب وصف افريقيا) وهو المنشور من بين العديد من الكتب التــي اشار الى انه ألفها . وقد ترجم كما ذكرنا الى معظم لغات العالم وطبع فى كــل منها عــدة مرات .

ولا شك فى ان هذا العرض للرجل ولمؤلفه لا يغني عن الرجــوع للكتاب ذاته — بل لعله يدفع الى ذلك ، فليس امتع من ان نسير مع الرحالة

فى رحلته ليقص علينا بطريقته الانطباعات التي تركتها الاحداث التي مرت به والمشاهدات التي وقعت تحت بصره وسمعه .

وبعد لعل فى هذا العرض ــ كما ذكرت ــ ما يدفع لان يتقدم أحد الدارسين المتخصصين الاكفاء أو مجموعة منهم لسد الفراغ الضخم فى المكتبة العربية بترجمة كتاب وصف افريقيا الى اللغة العربية، اللغة الاصلية للمؤلف وابائه واجداده .

والله ولي التوفيق . **شوقي عطا الله الجمل**

مصـــادر البحـــث والتعاليـــق

(1) لعل ابن خلدون يعطي مثلا قويا لهذه الظاهرة وسنشير اليه فيما بعد .

(2) اقتصر ملك الامراء المسلمين فى اسبانيا بعد سقوط اشبيلية سنة (1048) على مملكة غرناطة حيث بقيت فترة فى أيدي (بني نصر) ، لكن سقطت غرناطة فى النهاية فى عام (897 هـ ــ 1492 م) فى يد (فرديناند الخامس) الذي ارتقى عرش مملكة ارجون فى عام (1467) بعد وفاة أبيه الملك يوحنا الثاني ، بينما كانت (ايزابيلا) قد ارتقت عرش مملكة قشتالة عام (1474) بعد وفاة أخيها (هنري الرابع) وبزواجهما اجتمعت لهما السلطة فى اسبانيا .

(3) ملاحظـة : لا توجد علاقة بين أسرة الوزان ــ كما يبدو ــ والاسرة التي تحمل نفس الاسم (الاسرة الوزانية) التي تنتمي لاحد مشايخ الطرق الصوفية وقد نشأت بين هذه الاسرة ودولة الحماية (فرنسا) علاقات .

(4) الطبعة الانجليزية التي نشرها ((John Pory) فى عام 1600 تحت اسم : The history and Description of Africa and of the Notable things theren contalned Written by Al Hassan Ibn Mohammed al-Wazan Al Fasi. A moor, Baptised as Giovanni Leone, But Better Known as Leo Africanus.

وقد أعيد نشرها فيما بعد فى ثلاثة أجزاء أيضا مع مقدمة وتعليقات للدكتور روبرت بـــرون (Robert Brouwn) سنة (1896) وهي الطبعة التي سنشير لصفحاتها دائما هنا . وسنشير فيما بعد ــ للطبعات الاخرى الهامة التي ظهرت لهذا الكتاب بمختلـف اللغـــات .

(5) أسرة (مدتشي) من الاسر التي برزت فى عهد النهضة الايطالية ، وقد حكمـت فلورنسا فترة من الزمن ، وبرز منها أفراد منهم (البابا ليو) المشار اليه ، وقد لعب دورا هاما فى أثناء حركة مارتن لوثر (1483 ــ 1546) ، وقد عاصر الحركة فى مرحلـة هامـة مـن مراحلهـا . كمـا بـرز من هـذه الاسـرة كوزمـو دي مدتشـي (Cosmo de Medicci) الذي يقترن اسمه بتأسيس مكتبة البندقية خلال الفتـرة التي كان منفيا بها ، كما دعم مكتبة (سان ماركو) فى فلورنسا ، كما اشتهـرت كاتريـن مدتشـي (Catherine de Med cci) فى فرنسا (1519 ــ 1589) وكانت فى فترة من الفترات وصية على ابنها (شارل التاسع) ملك فرنسا .

(6) Atiya, Aziz, Suryal : The crusade in the latter Middle ages (London 1938) p. 477

(7) طبعة (1896) الانجليزية Vol. I. P. 187

(8) Rae : Country of the Moors P. 22

(9) Vol. II. P. 299

(10) Vol. II. P. 288

(11) المقري ، احمد بن محمد التلمساني : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ج 2 ص 617 (المطبعة الازهرية بمصر 1302 هـ)
— كذلك محمد داود : تاريخ تطوان ج 1 ص 232
— والزياني ، عبد العزيز بن الحسن المهدي : الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة (مخطوط بالخزانة العامة ، الرباط) ورقة 125/ ب
— Roger, coindreau : les Corsaires de Salé (Paris 1948)

(12) Prescott : History of the Reign of Ferdinand and Isabella (1890) P. 467

(13) لم نعثر فى كتابه على اشارة تفيدنا فى تحديد تاريخ هجرته للمغرب بالضبط .

(14) يرجع بناء جامع القرويين الى عهد الامير (يحيى بن محمد بن ادريس) من ملوك الادارسة وقد تولى الحكم فى عام (234 هـ — 849 م) وقد بنته الاميرة فاطمة الفهرية القيروانية (أم البنين) من مالها الخاص ، واصبح بعد ذلك موضع رعاية الملوك فادخلوا عليه التحسينات وتطورت فيه الدراسة حتى أصبح بمثابة (جامعة) يؤمها طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم ، وممن وفدوا عليه البابا (سلفستر الثاني) واليه يرجع الفضل فى تطوير التشريع الروماني بما اقتبسه من النظريات الفقهية الاسلامية . وقد ذكر ليو أنه قرأ فى القرويين بعض كتب الادب والمنطق والعقائد وحفظ كتب الغزالي .

(15) مقدمة الطبعة الانجليزية المشار اليها سابقا P. XIX

(16) الطبعة الانجليزية المشار اليها P. 273

(17) العدل هو موثق العقود (Notary) — انظر P. 426

(18) (سلطان فاس) هو السلطان محمد البرتغالي الوطاسي (910 — 931 هـ) ويشرح الوزان سبب تسميته بالبرتغالي ، اذ أن البرتغال أسروه فى (أصيلا) أيام أبيه (محمد الشيخ بن أبي زكريا) فمكث عندهم سبع سنين ، ولما افتداه أبوه ورجع كان يتقن اللغة البرتغالية فلقب بالبرتغالي .

— اما الشريف محمد — فهو (أبو عبد الله القائم بامر الله السعدي) ، وقد بايعه أهل جنوب المغرب فى عام (916 هـ) فاخذ يناوىء الوطاسيين ، وبعد حروب طاحنة تصالح الفريقان على اقتسام البلاد ، وظل السعديون سادة (مراكش) حتى غلبوا على فارس سنة (956 هـ) ، واستعاد الوطاسيون فاس بمعاونة الاتراك فى الجزائر — لكن

السعديين أعادوا عليهم الكرة ودخل (أبو عبد الله محمد الشيخ ــ المهدي) فاس ثانية وقبضوا على أبي حسون آخر الامراء الوطاسيين وقتلوه (957 هـ) وقضــوا بذلك على حكم اسرة بني وطاس ، واتخذ السعديون (مراكش) عاصمة لهم .

(19) استولى البرتغال على الموانيء المغربية الواحدة تلو الاخرى . فقد استولوا على سبتة (818 هـ ــ 1415 م) وظلت تحت حكمهم الى آن سلموها للاسبان (1080 هـ ــ 1669 م) ، كما استولوا على القصر الصغير (826 هـ ــ 1457 م) وعلى طنجــة (869 هـ ــ 1464 م) وتنازلوا عنها للانجليز (1072 هـ ــ 1661 م) كمهر قدمته (كاترين) شقيقة ملك البرتغال لزوجها (شارل الثاني) ملك انجلترا ، وقد استردها المولى اسماعيل من انجلترا (1095 هـ ــ 1684 م) واستولوا على أكادير (1505 م) وعلى الصويرة (1506 م) وآسفي (1508 م) وآزمور (1513 م) والجديدة (1514م) . وهكذا استولوا على الشاطيء المغربي كلــه .

(20) Vasco de coravalho : La domination Portugaise au Maroc 1415-1769 (Lisbonne 1936) P. 15

(21) مقدمة الطبعة الانجليزية المشار اليها P. XXIX

(22) آثار (شاله) المقصودة هنا هي مدافن الخلفاء المرينيين بشالة .
انظر : أبو عبد الله محمد بن مصطفى بوجندار الرباطي (1345 هـ ــ 1926 م) : شاله وآثارها (الربــاط 1922) .
ــ وكذلك البحث المفصــل والقيــم :
Hesperis (1922 - Vol. II) ; Chella une nécropole Mérinide P.P. 1-92, P.P. 255 - 316, P.P. 385 - 425

(23) P. 886 et P. 904 (فى الكتاب الثامن) .

(24) مقدمــة الطبعــة المشــار اليهــا

(25) كانت القرصنة ظاهرة مميزة لهذا العصر وقد ارتبطت فيما يتعلق بمسلمي شمــال افريقيــا بالجهاد ضد المستعمرين الاوربيين .
وعن القرصنــة انظــر : Adventures of Thomas Pellow (1890)

(26) مقدمة الطبعة الانجليزية التي أشرنا اليها P. LII

(27) للدراسة التوسعية للدافع الديني وراء الاستعمار الاسباني والبرتغالي فى افريقيا فى ذلــك الوقــت انظــر :
ــ عودة عبد الملك : السياسة والحكــم فى افريقيا (القاهــرة 1959) ص 60 ومــا بعــدهــا .
ــ شوقــي الجمــل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارهــا (القاهــرة 1971) ص (121 ــ 155) .

(28) انظــر : Vol. III P. 972 من الطبعة الانجليزية المشار اليها .

(29) ذكر الرحالة فى كتابه انه قرأ فى القرويين بعض كتب الادب والمنطــق والعقائــد وحفظ بعض كتب الغزالي ...

(30) محمد المنوني : التيارات الفكرية في المغرب المريني (مجلة الثقافة المغربية عدد 5).

(31) ابن السكاك – هو محمد بن غالب بن احمد المكناسي (+ 818 هـ – 1415 م) .

(32) المقري – هو محمد بن محمد المقري – قاضي الجماعة بفاس (759 هـ – 1357 م)

(33) نلاحظ أن ابن خلدون تناول نفس هذه الافكار بالتحليل في مقدمته :
(فصل في أن كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل ، وفصل في ان كثـــرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم) .

(34) نسخة من الرسالة موجودة بالخزانة العامة بالرباط برقم 178 ج ، واخرى بنفس الخزانة برقم 11138 د .

(35) انظر صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد مجلد 6 ص 228 .

(36) الرسالة موجودة ضمن مجموعة رسائل لابن عباد بالمكتبة الملكية بالرباط برقم 255.

(37) البكري : ابو عبيد الله (+ 487 هـ – 1094 م) – وضع كتابا من عدة مجلدات باسم (المسالك والممالك) معتمدا على وثائق الارشيـف الرسمـي في قرطبـة .
وقد أمدنا بمعلومات قيمة عن بلاد المغرب والسودان الذي خصص له جزء باســم (تذكرة النسيان في اخبار ملوك السودان) – وله (معجم جغرافي) لاسماء البـلاد حسب حروف الهجاء – ويعتبروه دوزي اكبر جغرافي اخرجته الاندلس .
انظـــر :
Dozy R : Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen-âge (Leyde 1849) P. 297.

(38) الادريسي : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس ، ولد في سبتة (493 هـ ـ 1100 م) وضع كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) بتشجيـــع (روجر الثاني) ملك صقلية .
انظر : كراتشوفسكي ، اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي : تاريخ الادب الجغرافي العربي (نقله الى العربية صلاح الدين عثمان هاشم) – القسم الاول ص 279 وما بعدها.
— هذا ويشير بعض الكتاب الى الشبه الكبير بين سيرة حياة كل من الادريسي والحسن الوزان .
انظـــر :
Massignon L. : Le Maroc dans les premières années du XVIè siècle (Alger 1906) P.P. 32-37

(39) ابن جبير : محمد بن احمد بن جبير الكناني (+ 614 هـ – 1217 م) وهو من اسرة عربية استوطنت بلنسية (Valencia) في الاندلس . وكان كاتبا لحاكـــم غرناطة الموحدي ، وقد قضى فترة طويلة من حياته متنقلا بين مكـة وبيت المقدس ومصـــر ، وتوفي في الاسكندرية .
انظر : نصار ، حسين نصار : رحلة ابن جبير Wright : Ibn Jubayri (1885)

(40) ابن سعيد : أبو الحسن علي الغرناطي – ولد حوالي (610 هـ – 1214 م) بغرناطة، زار شمال افريقيا ومصر والعراق . وله الفضل في اتمام عدة مؤلفات تعالج تاريـخ العرب والبلاد العربية منذ الجاهلية الى عصره ، كان قد بداها جده وابوه .

(41) ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي . ولد بطنجة (703 هـ ـ 1304 م) وخرج من طنجة في عام 725 هـ لحج بيت الله الحرام ، لكنه ظل متنقلا ولم يعد الى وطنه الا بعد أكثر من ربع قرن ، وقد وصل الى فاس في عصر حكم السلطان المريني أبي عنان (751 ـ 759 هـ) وقد كلفه هذا السلطان برحلة الى (تمبكتو) زار فيها سجلماسة ، ومملكة مالي . وقام (محمد بن جزي الكلبي) ـ الذي كان يشغل منصب كاتب في سلطنة بني نصر حكام غرناطة ثم عمل في بلاط السلطان أبي عنان ـ بتدوين أخبار رحلة ابن بطوطة بتكليف من هذا السلطان ـ فرحلة ابن بطوطة التي نشرت باسم « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » تمثل الرحلة بأسلوب ابن جزي وليس بأسلوب الرحالة نفسه .

ـــ انظر : مقدمة ابن جزي لرحلة ابن بطوطة (نشر دار التراث ببيروت 1968) ص 8 ـ ويوجد بالمكتبة الاهلية بباريس جزء من مخطوط ابن جزي بخط يده .

(42) ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ، ولد في عام (732 هـ ـ 1332 م) . عاش أيضا في رعاية السلطان أبي عنان ، وتنقل في بلاد شمال افريقيا واستقر في منطقة منعزلة ضمن أعمال (وهران) حيث كتب مقدمته . وسافر الى مصر في عهد السلطان المملوكي (برقوق) . وكتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » يقدم لنا مادة وفيرة عن تاريخ البربر ، وتاريخ الدويلات المسيحية في اسبانيا .

انظر : طبعة بولاق ـ مصر (1284 هـ) ـ في سبعة أجزاء .

(43) كان هذا النمط من الكتابة قد أخذ يتقهقر في المشرق العربي ، ولعل المسعودي (+ 956 هـ م) في كتابيه (مروج الذهب ومعادن الجوهر) و (أخبار الزمان) ، وابن حوقل (القرن العاشر) في كتابه (المسالك والممالك) ـ (صورة الارض) يمثلان قمة هذه الظاهرة في المشرق .

ونحن نجد هذا المد الثقافي ينتقل الى المغرب العربي فيقدم لنا دفعات قوية في هذا المجال ...

(44) لمن يريد التوسع في تتبع حركات الكشف الجغرافي للقارة ـ انظر : شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (القاهرة 1971) .

ـــ وقائمة المراجع عن تاريخ القارة في ص (719 ـ 724) من الكتاب المذكور .

ملاحظة : المقدمة التي قدم بها (Pory) لترجمة الكتاب عام 1600 هي نفسها تدل دلالة واضحة على مدى الجهل في ذلك الوقت بداخل القارة الافريقية .

(45) Massignon, Le Maroc : OP. Cit. P.P. 36 et 40.

(46) نشرت هذه الطبعة في حياة (الوزان) نفسه ومنها نعرف انه (أي الوزان) انتهى من كتابه بالايطالية في (10 مارس 1526 م) .

(47) الغريب أن بعض الكتاب بعد ذلك بمدة طويلة أشاروا الى وجود النسخة الخطية ـ انظر :

— Mr. S. Cock : Narrative of Robert Adams (1816) p. 188

— Mr. Berbriegger : Revue Afr caine (1858) p. 362

لكن لم يشر أحدهما الى مكان هذه النسخة الخطية مما يثير الشك في كليهما .

(48) مقدمــة Dr. Robert Broum – الطبعة السالفة الذكر P. XIV

(49) لـذا نشر الكتــاب تحت عنوان :
" A Geographical Historie of africa, written in Arabicke and Italian by John Leo, a More, borne in Granada and brought up in Barbarie (Londini 1600)

(50) Schefer, Description de l'Afrique, I. P. XVI

(51) Massignon, Maroc P. 23
ويلاحظ أن هذا لا ينفي وجود مسودة عربية للرحلات ، فالكاتب هنا – اثناء كتابــة كتابه بالايطالية يشير الى أن المراجع الاجنبية فى متناول يده بعكس المراجع العربية التي افتقدها فى اوربا بينما كانت تحت يده فى وطنه الاصلي .

(52)
Historiale Description de l'Afrique... Ecrite par Jean Leon African premièrement en langue arabesque, puis en Toscane, mise en français par Jean Temporal (Lyon 1556).

(53)
Joannis Leonis Africani, de Totius Africae descriptione... recens in Latinam Linguam conuersi Joan Floriono interprete.

(54) كـــان (John Pory) طالبا بجامعة كامبردج (Cambridge) فى عام 1587 ، لكن يبدو انه لم يستمر حتى يحصل على درجته الجامعية التي كان يريد التخصص فيها ، وقد اهدى الكتاب (الترجمة) الى السيد روبرت سيسل Sir Robert Cecil سكرتير الدولة وعضو المجلس الخصوصي .

(55) نشر هذه الطبعة الاسبانية معهد فرانكو (Institute General Franco) مع تحقيقات باللغة العربية والاسبانية – ونسخة من هذه الطبعة موجودة بالخزانـة العامة بالربــاط تحت رقم C/4869 ، وقد ظهرت ترجمــة اسبانيــة اخــرى فى عــام 1952 .

(56)
Description de l'Afrique truce Partie du Monde écrite par Jean Leon Africain, premièrement en langue arabesque puis en Toscane et à présent mise en français. Nouvelle Edition, annotée par Ch. Schefer I - III (Paris 1896-1998).

(57)
The History and Description of Africa and of the Notable Things There in contained — written by al — Hassan Ibn Mohammed al Wezaz al Fasi, A moor Babtised as Giovanni Leone, Better known as Leo Africanus, Done Into English in the year (1600), by John Pory (with an introduction and notes by Dr. Robert Brown).
وسيكون تحليلنا للكتاب على اساس هذه الطبعة .

(58) انظر مقدمة (Brown) للترجمة الانجليزية والمشار اليها سابقا (P. LXXI) ومـا بعـدهـا .

(59)

— Langres de Tassy : Histoire du Royaume d'Alger (1725)

— Joseph Morgan : History of Alger.e, to which :s prefexed an epitome of the General History of Barbary from the earliest times (1728)

(60)

Massignon, Louis : Maroc dans les premières années du XVIè siè- - cle. Tableau Géographique d'après Léon l'Africain (Alger 1906) Hartmann, J.M. : Idrisi Africa (1796) P. XX

(61)

(62) نشـر (Barth) مشاهداته في خمس مجلدات :

Barth, H. : Travels and discover:es :n North and Central Africa (1849-1855) 5 vols. (London 1857-1858)

وللدراسة المستفيضة لجهود بارث انظر :
شوقي الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها (القاهرة 1971) ص 100 ، 494 ، 498 ، 565 .

(63) يشير الرحالة (Shaw) الى ان المدينة البربرية بالذات تتسم بعدم الاستقرار نتيجة الظروف الطبيعية والبشرية ، انظـر :

Shaw : Travels and Observations relating to Several Parts of Barbary and Levant (1757) P. 136

(64) اعتمدنا في ذلك على الطبعة الانجليزية التي ظهرت في (1896) اعتمادا على طبعة (Pory) الصادرة في لندن 1600 مع تعليقات (Dr. Brown) ونسخة هذه الطبعة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 80 A (8881).

(65) استند الجزء الاول في هذه الاضافة على ما كتبه الرحالة والكتاب الآخرون الذين كتبـوا عن هـذه المناطـق .

(66) انتشرت في اوربا ـ خاصة في أوائل الكشوف الجغرافية ـ فكرة وجود امبراطورية مسيحية على راسها امبراطور عرف باسم (القديس يوحنا) ، وكان من اهداف الكشوف الجغرافية الاولى الوصول لهذه المملكة المسيحية للاتفاق على تطويق العالم العربي الاسلامـي .

(67) امبراطورية المونوموتابا ـ كونتها قبائل البانتو في شرق افريقيا في المنطقة التي تدخل فيها على الخصوص أراضي روديسيا (الجنوبية) حاليا ـ وكانت في القرن الخامس عشر تسكنها قبائل (الميتابلي) و (الماشونا) وظلت هذه الامبراطوريـة قائمة حتى قضى عليها المستعمرون الاوربيون .

(68) يقصد بها المناطق الواقعة في جنوب افريقيا الى راس الرجاء ، ثم ارض (ناتال) ولفظ كافر (Kaffir) ـ كما يذكر جونسون اطلقه العرب على المستوطنين في جنوب افريقيا من الزنوج (لعدم ايمانهم بالله) وان الهولنديين (البوير) عند استيطانهم جنوب افريقيا اخذوا من العرب هذا اللفظ واطلقوه على قبائل البانتو بينما اطلقه غيرهم من الكتاب الاوربيين على الافريقيين عموما .
انظر :
Johnston, H.H. : A History of the Colonisation of Africa (Cambridge 1913) P. 130.

(69) كانت بالكنغو قبل الاستعمار الاوربي مملكة يمتد سلطانها على مساحة كبيرة من الارض وكان الحاكم يعرف باسم (المانيكونجو (Mani Congo)
انظر :
Duffi, James : Portuguese Africa(London 1929) P. 11

(70) افريقيا بالنسبة له ـ هي المناطق الواقعة شمال خط الاستواء فهو لم يتعرض لما هو جنوب ذلك .

(71) البعض شبه هذا التقسيم بما ورد في مقدمة ابن خلدون وبمنهجه في المعالجة ايضا .
ـــ انظر محمد المهدي الحجوي : حياة الوزان الفاسي واثاره ـ بحث قدم لمؤتمر المستشرقين بفاس (1933) ـ نسخة بالخزانة العامة في الرباط تحت رقم (C / 2162)

(72) 151 - 161 .P.P.

(73) 164 P. لا ندري هل كتب كتابا خاصا بهذا الموضوع ام لا ؟

(74) 166 P. .

(75) 167 P.

(76) 175 P.

(77) 179 P. (ويلاحظ ان الاحصاءات الحديثة تؤيد صحة ما ذكره مثلا عن طول اعمار سكان الجبال) .

(78) 180 P.

(79) 182 P.

(80) 185 P.

(81)
J. Morgan : A Complete History of Algiers (1731) Préface P. VII
وكذلك
Chenier : Recherches Historiques sur les Maures vol. III (1787) P. 65

(82) 187 Vol. I.P.

(83) Vol. II P. 264

— منار الكتبية الذي يشير اليه يبلغ ارتفاعه 50 67 مترا * وقد شيده (الامير يعقوب المنصور) من خلفاء الموحدين الذي توفي (580 هـ — 1184 م) أما مسجد اشبيلية فقد حوله الاسبان بعد استيلائهم على اشبيلية (1248 م) الى كنيســة وحولت منارته العظيمة الى برج للناقوس وهي لا تزال قائمة الى الان مثالا رائعا للفن ويعرف ببرج (الجيرالدا) .

أما مسجد حسان بالرباط فرغم ما اصابه نتيجة حريق تعرض له ، وهزة أرضية فى القرن الثامن عشر فلازالت أطلاله ومنارته العظيمة التي تبلغ 66 مترا ناطقة بعظمته .

(84) P. 288 — 294

(85) P. 306

(86) P. 323

(88) يشغل الكتاب الثالث الصفحات (393 — 560)

(89) P. 437

(90) P. 438

(91) P. 438

(92) P. 448

(93) P. 470

(94) P. 454

(95) P. 475

(96) P. 401

(97) P. 407

(98) P. 421

(99) P. 496

ملاحظة : لعبت هذه المدينة دورا هاما فى تاريخ المغرب وذاعت شهرتها حين حدثت فى السهل المجاور لها (وادي المخازن) فى عام (1578) — معركة وادي المخازن أو (معركة الملوك الثلاثة) التي قتل فيها الملك سبستيان ملك البرتغال .

— للدراسة التفصيلية للمعركة انظر : محمد الفاسي : موقعــة وادي المخــازن الحاسمة (مجلة البحث العلمي المغربية العدد التاسع — سبتمبر ، ديسمبر 1966) ص 213 وما بعدها .

(100) P. 502

— وقد ورد ذكرها مرارا فى «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» — للادريسي باسم(أصيلا).

(101) P.P. 504 ، 506
وقد وصل البرتغالي للعرش سنة (1508 م) .

(102) يشغل الصفحات من 659 الى 689 .

(103) بدأت سلطة الدولة الزيانية في تلمسان بحكم أبو يحيى (يغمر اسن بن زيان) (633 هـ – 1236 م) وقد مر حكم هذه الاسرة بمرحلتين ، انتهت المرحلة الاولى بحكم (أبو تاشفين ، عبد الرحمن الاول بن موسى) لكن نجح المرينيون في القضاء على هذه الدولة 737 هـ – 1337 م . وانبثقت هذه الدولة من جديد على يد أحمد ابن موسى الثاني 760 هـ – 1359 م ونجح (عروج) اخيرا في أن يحتل تلمسان عام 1517 .
انظر : ابن خلدون جـ 7 ص 161 .

Bargués : Complément de l'histoire des Beni Zeiyan (1887)

(104) P. 683

(105) أشار الى ان تشييد قسنطينة يرجع للنفوذ الفينيقي على الشمال الافريقي . كما شهدت صورا من الكفاح بين القرطاجنيين والرومان P. 704

(106) يشير الى الاختلاف في الآراء حول تشييد قرطاج P. 715

(107) تحدث بالتفصيل عن تاريخ تونس وقيام الدولة الحفصية ، وأبو زكريا يحيى الاول (627 هـ – 1229 م) ويتحدث عن المجتمع التونسي ، والتقاليد المتبعة في قصر حكام تونس وحاشية الحاكم ونظام وراثة العرش .

(108) يشير الى بناء (عبد الله المهدي) الخليفة الشيعي مؤسس الدولة العبيدية لمدينة المهدية في موضع بين (سوسة) و (صفاقص) وانتقل اليها واتخذها مركزا لحكمه في عام (308 هـ) وحصنها ، وبنى بها الجامع ، ودارا للصناعة .

(109) أشار الى بناء (عقبة ابن نافع الفهري) في سنة 50 هـ لمدينة القيروان في قلب البلاد التونسية ، وكانت هذه هي الخطوة الاولى نحو ظهور ولاية اسلامية بهذه البلاد ، وأحاطها عقبة بسور بسيط ، وجعل في وسطها الجامع الذي نسب اليه ، وابتنى بها دارا للامارة ، وقد عاد عقبة بن نافع الفهري لامارة افريقية في خلافة (يزيد بن معاوية) فتدارك أمر القيروان بعد أن كان قد أصابها الاهمال (P. 716 — 722)

ملاحظة : عن بناء القيروان انظر : النويري . وانظر :
— Rae : The country of the Moors P.P. 215-313
وانظر : — Broadley : Tunis Past and Present vol. II. P. 127

(110) P. 734 – 735

(111) P. 822

— يذكر (بارث) انها بنيت (435 هـ – 1033 م) وانتشر الاسلام بين اهلها في القرن 13 الميلادي .

— انظـر :
Barth, H. : Travels and Discoveries in North and central Africa (1845-1855) vol. IV P. 582

— وكذلـك :
Park : Travels in the interior districts of Afr:ca (1799) P. 191-200

(112) وصلت مالي الى درجة عظيمة ايام منسى موسى الذي اعتلى العرش سنة (706 هـ 1307 م) وقد كانت رحلته للحج سنة (725 هـ ـ 1324 م) مثار حديث الناس فى القاهـرة لمـدة طويلـة .
فقـد ذكـر ابـن فضـل اللـه العمـري (+ 724 هـ ـ 1341 م) : مسالك الابصار فى الممالك والامصار (القاهرة 1924) ... والذي زار القارة بعـد زيارة منسى موسى لها باثنتي عشرة سنة « ان ما طرح من ذهب فى أسواق القاهرة ادى الى هبوط قيمته هبوطا شديدا وذلك لسنوات » .

(113) P. 824 - 825
يذكـر (Barth) ان تمبكتو بنيت فى نهايـة القرن الخامس الهجـري ، وان الطوارق هم الذين بنوها وان جامعها العظيم والقصر يرجعان الى (منسى موسى) الذي كلف احد المهندسين من الاندلس واسمه (الساحلي) بهذا العمل ، وانهـا اضحت مركزا رئيسيا للتجارة يفد اليها التجار من درعة ، وسوس ، وسجلماسة ، وفاس ، ومن غدامس وفزان بل ومن مصر .
— انظـر : Barth, H. : OP. Cit. IV P. 403-480 and P. 584

(114) P. 826
— وقد بلغت صنغاي الصى درجة من الشهرة ايام حكم (اسيكا) .

(115) P. 828
— يلاحظ ان جوبير هي وطن الامام عثمان بن فوديو ـ الزعيم الفولاني المشهور .

(116) اشار الى (كانو) الرحالة
(Oudnev), (Denham), (Clapperton) : D. Denham. H. Clapperton and W. Oudney : Travels and dicoveries in Northem and Central Afr:-ca in 1822 - 4 (1826)
— كذلك Barth : OP. cit. vol. II P. 110

(117) P. 834
(118) نلاحظ هنا انه يطلق لفظ (النوبة) كتعبير جغرافي على منطقة واسعة رغم وجود ممالك مستقلة او على الاقل ادارات مستقلة فى ذلك الوقت فى كردفان ، ودارفور ، ودنقلـة .

— من يريد التوسع والحصول على حقائق من شاهد عيـان عن بـلاد النوبـة ، انظـر : Burckhardt : Travels in Nubia (1822)
وهناك ترجمة له باشراف (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) .

(119) P.P. 855 - 905

(120) 937 P.
(121) 939 P.
(122) 972 - 996 P.P.
(123) 997 - 999 P.P.
(124) 1001 - 1030 P.P.
(125) 1052 - 1053 P.P.
(126) 1048 P.
(127) 1074 - 1105 P.
(128) 1106 - 1119 P.
(129) Schefer : Description de l'Afrique, I : P. XXV
(130) Ibid P. XXV
(131) Massignon : Maroc P. 65
(132)
Walckenaer : Recherches Géographiques sur l'intérieur de l'Afrique septentrionale (1821)
(133) كر. شكوفكسي : تاريخ الادب الجغرافي العربي (الترجمة بالعربية) قسم 1 ص 454
عن 71 (1908
Kramers, J.H. : Enzklopaedie des Islam (Lepzig 1908) P. 71
(134) جمال زكريا قاسم : الحسن بن محمد الوزان مجلة العربي - يونيو 1972 ص 94 .
— Morgan : A complete History of Algiers (1731) P. VII
— Chenier : Recherches historiques sur les Maures (1787) V. III P. 65
(135) Massignon : Leo Africanus P. 24
(136) في مكتبة الاسكوريال تحت رقم 598 ـ لما (كاسيرى) فهو علامة لبناني وضع فهرسا جامعا باللاتينية لمجموعة المخطوطات العربية الموجودة بقصر الاسكوريال في مجلدين عام (1760) ، (1770)
Casiri : Bibliotheca Arabico. Hispana Escurialensis
— (1760 - 1770)
(137) انظر : محمد المهدي الحجوي : حياة الوزان الفاسي ـ بحث مقدم لمؤتمر المستشرقين بفاس 1953 .
(138) 412 P.
(139) 164 Vol. I. P.
(140) 172 Vol. II. P.
(141) 886 Vol. III. P.
(142) 127 Vol. II. P.
(143) 904 - 905 P.P.